سُورَةُ الإِسْرَاءِ

مكية وهي مائة وإحدى عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾.

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ﴾ سبحان اسم للتسبيح ومعناه: تنزيه الله تعالى من كل نقص وسوء، وتصدير الكلام به، للتنزيه عن العجز عما ذكر بعده، والإسراء معناه السفر ليلاً، وهو ثابت بهذا النظم الكريم، ومفصَّل بالأحاديث النبويَّة الصحيحة، وذلك يعطيه قوة اليقين، ومنكر الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كافرٌ، لأنه أنكر القرآن الكريم، وإنكار المعراج فسق ﴿بِعَبْدِهِ﴾ أجمع المفسرون والعلماء على أن المراد بعبده رسول الله ﷺ ولم يختلف أحد من علماء الأمة في ذلك، وإيثار لفظ «العبد» للإيذان بتمحضه ﷺ في عبادته سبحانه وتعالى، وبلوغه في ذلك غاية الغايات، حسبما يلوح به مبدأ الإسراء ومنتهاه ﴿لَيْلًا﴾ قيَّده بالليل - والإسراءُ لا يكون إلا بالليل - للتأكيد، وليدلَّ التنكير على تقليل مدة الإسراء، وأنه تعالى أسرى به في بعض الليل لا في كله[1] ﴿مِّنَ الْمَسْجِدِ

(١) إنما ورد اللفظ ﴿ليلاً﴾ بالظرف ليفيد أنه كان في جزء وطائفة من الليل، ولو قال أسرى بعبده الليل لأفاد جميع الليل، فتنبه لدقائق أسرار القرآن.

﴿ٱلْحَرَامِ﴾ اختلف في مبدأ الإسراء، فقيل: هو المسجد الحرام، وهو الذي يدل عليه ظاهر القرآن، روي عنه ﷺ أنه قال: «بينما أنا في المسجد الحرام، في الحِجْر عند البيت، بين النائم واليقظان، إذْ أتاني جبريلُ بالبراق»[1] الحديث، وقيل: أُسري به من دار «أم هانىء بنت أبي طالب» وهذا قول الأكثر، وعلى هذا القول المراد بالمسجد الحرام الحرمُ أي مكة المكرمة، فإنها كلها حرم وكان قبل الهجرة بسنة، وكان بالروح والجسد، لا كما زعم بعضهم أنه كان روحانياً، والحق أنه كان جسمانياً، على ما ينبىء عنه التصدير بكلمة ﴿سُبحَانَ﴾ المفيدة للتنزيه، وما في ضمنه من التعجب، فإن الإسراء الروحاني ليس في الاستبعاد والاستنكار، وخرق العادة بهذه المثابة، لأن كثيراً من المؤمنين يسيرون بأرواحهم إلى أقاصي الدنيا، ويشاهدون ما فيها من العجائب، فإذا كان الإسراء بالروح فقط فأين الاختصاص والامتياز؟ ولذلك تعجبت منه قريشٌ وأحالوه وأنكروه، ولو كان بالمنام لما أنكروه، فالأكثرون على أنه أُسري بجسده، والأقلون قالوا: أُسري بروحه. وقال أهل التحقيق: إن العبد اسمٌ لمجموع الجسد والروح، وعلى الأول الجمهور، إذ لا فضيلة للحالم، ولا مزية للنائم، وفي هذا الحكم والاختلاف برهان قويٌّ عَلى قوة الدين الإسلامي، الذي لا يأخذ أتباعه إلاَّ بالوضوح والصراحة التامة، وقال طائفة كان الإسراء إلى بيت المقدس بالجسد، وإلى السماء بالروح، محتجين بأن الله تعالى جعل المسجد الأقصى غاية للإسراء، ولو كان زائداً عليه لذكره، وقال النووي: الذي عليه معظم السلف وأكثر المفسرين والمحدثين أن المعراج كان بجسده في يقظته ﷺ، والمعروف عند الجمهور أن ليلة الإسراء هي السابعة والعشرون من ليالي رجب، في السنة الحادية عشرة من النبوة، وقيل غير هذا، ولا خطر ولا ضرر في تحديد اليوم ، فالعبرة في حدوث الشيء لا

---

(١) انظر تمام الحديث في صحيح البخاري كتاب التفسير ٨/ ٣٩١ وفي الإسراء من صحيح البخاري.

وقت وقوعه. ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ أي بيت المقدس، سمي به إذ لم يكن حينئذ وراءه مسجد، ولِبُعْد المسافة ﴿ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ ببركات الدين والدنيا، لأنه مهبط الوحي، ومتعبَّد الأنبياء عليهم السلام، وهو محفوف بالأنهار الجارية، والأشجار المثمرة، فدمشق والأردن، وفلسطين من المدن التي حوله، وجُعل الإسراء إلى بيت المقدس، كالتوطئة لمعراجه ﷺ وتقريباً للإسراء إلى قبول السامعين، كما سألوا وقالوا: هل تستطيع أن تصف لنا المسجد؟ قال: نعم، فجلى الله له بيت المقدس، فنعته فقالوا: أما النعت فقد أصاب، ومع ذلك كابروا وجحدوا ﴿لِنُرِيَهُۥ﴾ غاية الإسراء ﴿مِنْ ءَايَـٰتِنَآ﴾ العظيمة التي من جملتها ذهابه في برهة من الليل، مسيرة شهر، ومشاهدة بيت المقدس، وتمثُّل الأنبياء له، ووقوفه ﷺ على مقاماتهم العلية، والالتفات إلى التكلم لتعظيم تلك البركات ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقواله ﷺ ودعائه ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ بأفعاله فيكرمه ويقربه بحسب ذلك، وفيه إيماء إلى أن الإسراء ليس إلا لتكرمته ﷺ، ورفع منزلته، وإلاَّ فالإحاطة بأقواله وأفعاله حاصلة من غير حاجة إلى التقريب، والالتفات إلى الغيبة لتربية المهابة.. **حكمة الإسراء**: كان ﷺ قد ذهب إلى الطائف، يدعو أهلها إلى الإسلام، فما أحسنوا استقباله، بل أساؤوا إليه، فرجع حزيناً إلى مكة، لوقوف قريش بالمرصاد في طريق رسالته، فكأنما طاف بنفسه وروحه العالية، وكأنما رأى أنه محوط بأعداء الإسلام من كل جانب، مع قلة أنصاره، فكان في حالة لا يمكن التعبير عنها بالقلم، لشدة حرصه على خير العالم، وعظيم شوقه إلى انتشار الإسلام، وحينئذٍ كان الإسراء والمعراج، ليبشره الله تعالى عمليّاً بما يزيل من نفسه عوامل الحزن والأسف، فالإسراء بمثابة «مرسوم ملكي» أُعلِن فيه الرسولُ ﷺ ما هو قريب حصوله من إقبال الناس على دين الله، وقد تسلَّم ﷺ هذا المرسوم الجليل، في حفلة كاملة، حضرها الأنبياء والمرسلون، والملائكة المقربون، وفيها حِكَم كثيرة غير هذا.

﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ﴾.

﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ أي التوراة، وفيه إيماء إلى دعوته عليه السلام إلى الطور، وما وقع فيه من المناجاة، أي آتيناه بعدما أسرينا به إلى الطور، ذكر الله تعالى في الآية الأولى إكرامه للرسول ﷺ، وذكر في هذه الآية إكرامه لموسى عليه السلام ﴿ وَجَعَلْنَٰهُ ﴾ أي ذلك الكتاب ﴿ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ يهتدون بأنواره ﴿ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ ﴾ أي لا تتخذوا ﴿ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴾ أي ربّاً تكلون إليه أموركم.

﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ ﴾ نُصب على الاختصاص، يعني قلنا لهم: لا تتخذوا من دوني وكيلاً، يا ذرية من حملنا مع نوح، والمراد تذكيرهم بإنعامه تعالى، في ذكر إنجاء آبائهم من الغرق، في سفينة نوح عليه السلام، فجميع الناس من ذرية من أنجي في السفينة ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ كثير الشكر في حالاته، روي أنه عليه السلام كان لا يأكل ولا يشرب ولا يلبس إلا قال: الحمد لله، وفيه إيماء بأن إنجاءه ومن معه، ببركة شكره، وحث للذرية على الاقتداء به.

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ وَقَضَيْنَآ ﴾ أي أعلمناهم وأوحينا إليهم ﴿ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي في التوراة ﴿ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ المراد بالأرض أرض فلسطين ﴿ مَرَّتَيْنِ ﴾ مخالفة لحكم التوراة أي تفسدنَّ إفساداً عظيماً مرتين، وذلك بسفك

الدماء، وقتل الأنبياء، وقتل زكريا ويحيى، وقصد قتل عيسى عليهم السلام ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ لتستكبرن عن طاعة الله سبحانه بالظلم والعدوان، وتفرطن في ذلك مجاوزاً للحدود.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴿٥﴾﴾.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾ أي حان وقت حلول الغضب لأولى المرتين من الإفساد ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي بعثنا عليكم لمؤاخذتكم بجناياتكم أناساً جبارين للانتقام منكم، ذوي قوة وبطش في الحروب[1]، والمقصود هو أنهم لما أكثروا الظلم والمعاصي سلَّط الله عليهم أقواماً قتلوهم وشرَّدوهم ﴿فَجَاسُوا﴾ أي ترددوا في طلبكم وطافوا ﴿خِلَالَ الدِّيَارِ﴾ في أواسطها فقتلوا كبارهم، وسَبَوْا صغارهم، وحرَّقوا التوراة، وخَرَّبوا المسجد، وذلك تولية بعض الظالمين بعضاً، مما جرت به السُنَّة الإلَهية ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾ لا محالة بحيث لا صارف له.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾﴾.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ﴾ أي الدَّوْلة والغلبة ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي على الذين فعلوا بكم ما فعلوا، حين تبتم ورجعتم عن الفساد والعلو، وذلك حين

---

(١) قال المفسرون: إن بني إسرائيل لما انتهكوا المحارم، وسفكوا الدماء، سلَّط الله عليهم بختنصَّر المجوسي ملك بابل، فقتل منهم سبعين ألفاً حتى كاد يفنيهم هو وجنوده، وهذا أول الإفسادين في الأرض، وقضاء الله على بني إسرائيل ليس قضاء قهر وإلزام، وإنما هو إخبار من الله تعالى بما سيكون منهم، حسب علمه الأزلي سبحانه وتعالى منهم، فهو قضاء علمٍ بما سيحدث، فتنبه والله يرعاك!.

قتل داودُ عليه السلام جالوت ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ﴾ كثيرة بعدما نُهبت أموالكم ﴿وَبَنِينَ﴾ بعدما سُبيت أولادكم ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ أي جعلناكم أكثر عدداً ورجالاً من عدوكم، والنفيرُ من ينفر مع الرجل لنصرته، جمع نفر، وهم المجتمعون للذهاب إلى العدو.

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾﴾.

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ﴾ أعمالكم على الوجه اللائق، وفعلتم الإحسان ﴿أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ لأن ثوابها لها ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ﴾ أعمالكم وفعلتم الإساءة ﴿فَلَهَا﴾ أي فعليها وبالها ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي حان وقتُ ما وُعد من عقوبة المرة الأخيرة ﴿لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ أي بعثناهم ليسُؤوا وجوهكم أي ليجعلوها بادية فيها آثار المساءة ﴿وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟﴾ أي يُهلكوا ﴿مَا عَلَوْا۟﴾ ما غلبوه واستولوا عليه ﴿تَتْبِيرًا﴾ فظيعاً لا يوصف، وقد سلَّط الله عزَّ وجلَّ عليهم الروم، فغزاهم «قسطنطين» ملك الروم، ودخل مذبح قرابينهم، فوجد فيه دماً يغلي فقتل على ذاك الدم ألوفاً، فلم يهدأ الدم، ثم قال: إن لم تصدقوني ما تركتُ منكم أحداً فقالوا: إنه دم يحيى بن زكريا عليهما السلام، فقال: لمثل هذا ينتقم ربكم منكم.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ﴾ إن تبتم توبة أخرى وانزجرتم عما كنتم عليه من المعاصي ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ﴾ إلى ما كنتم من الفساد مرة أخرى ﴿عُدْنَا﴾ إلى عقوبتكم، وقد عادوا فأعاد الله النقمة بتسليط الأكاسرة، وضرب الأتاوة

عليهم، ونحو ذلك، وعن الحسن فبعث الله تعالى الرسول ﷺ فقتل قريظة وأجلى بني النضير، وضرب الجزية على الباقين، هذا لهم في الدنيا ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ سجناً لا يقدرون على الخروج منه أبداً.

﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾.

﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ﴾ الذي آتيناك يا محمد ﴿يَهْدِي﴾ أي الناس كافة ﴿لِلَّتِي﴾ أي للطريقة التي ﴿هِيَ أَقْوَمُ﴾ أي أقوم الطريق وأسدُّها أعني ملة الإسلام والتوحيد، وترك ذكرها لغاية ظهورها، لا سيما بعد ذكر الهداية، التي هي من روادفها وقوله: ﴿هِيَ أَقْوَمُ﴾ يدل على أن هذا الدين أقوم من سائر الأديان ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بما في تضاعيفه من الشرائع، والأحكام ﴿الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ أي الأعمال الصالحة التي يحبها الله عزَّ وجل ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ أي بأن لهم بمقابلة تلك الأعمال ﴿أَجْرًا كَبِيرًا﴾ بحسب الذات، وبحسب التضعيف عشر مرات فصاعداً.

﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي لا يصدِّقون بلقاء الله، ولا يؤمنون بالبعث والحساب والعذاب ﴿أَعْتَدْنَا﴾ أي أعددنا قلبت الدال تاءً ﴿لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ هو عذاب جهنم أي أعددنا لهم بسبب كفرهم بالآخرة، عذاباً أليماً، وهو أبلغ في الزجر، لما أن إتيان العذاب من حيث لا يحتسب أفظع والآية ترد على القول بالمنزلة بين المنزلتين، التي قال بها المعتزلة، حيث ذكر تعالى المؤمنين وجزاءهم، والكافرين وجزاءهم.

﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾.

﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ﴾ المرادُ بالإنسان الجنسُ، حكى عنه حالَه في بعض أحيانه، وهو الكافر يدعو لنفسه بما هو شر من العذاب المذكور كدأب من قال منهم: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1] ﴿دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾ أي مثل دعائه بالخير ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ أي يسارع إلى طلب ما يخطر بباله، متعامياً عن ضرره، كما هو حاله عند الغضب، يدعو على نفسه، وأهله، وماله بما هو شر، وكان الإنسان بحسب جبلَّته ﴿عجولاً﴾، ضَجراً لا يتأنى إلى أن يزول عنه ما يعتريه، ولا ينظر إلى عاقبته قال ابن عباس: هو دعاء الإنسان على نفسه وولده عند الضجر، بما لا يحبُّ أن يستجاب له: اللهم أهلكه، اللهم دمِّره ونحوه[2].

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ شروع في بيان بعض وجوه ما ذُكر من الهداية، بالإرشاد إلى مسلك الاستدلال بالآيات والدلائل الآفاقية، التي كل واحدة منها برهان نيِّرٌ لا ريب فيه، وتقديم الليل لمراعاة الترتيب الوجودي، إذ منه ينسلخ النهار، وفيه تظهر غرر الشهور، ولترتب آية النهار عليها بلا واسطة، أي جعلنا الليل والنهار بهيآتهما، وتعاقبهما، واختلافهما في الطول والقصر، على وتيرة عجيبة، تحار في فهمهما العقول، آيتين تدلان على أن لهما صانعاً حكيماً، قادراً، عليماً، تهديان لملة التوحيد، أي جعلناهما علامتين عظيمتين على وحدانية الله، وكمال قدرته جلَّ وعلا.

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٣٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٠/ ٢٢٥.

ثم إن مصالح الدنيا لا تتم إلا بالليل والنهار، فلولا الليل لما حصل السكون والراحة، ولولا النهار لما حصل الكسب والتصرف في وجوه المعاش ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ أي فمحونا الآية التي هي الليل، فجعلناه مظلماً، وجعلنا الآية التي هي النهار مبصرة، أي مشرقاً بالنور والضياء ليحصل به الإبصار، يريد الشمس والقمر، فمحو القمر حيث لم يخلق له شعاعاً، بل هو مستفاد من الشمس، وإبداعها على ذلك وأهل التجارب الفلكية، بينوا أن اختلاف أحوال القمر في مقادر النور، له أثر عظيم في أحوال هذا العالم ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ أي مضيئة يُبصر فيها الأشياء، وأبدعها مضيئة بالذات، تظهر فيها الأشياء المظلمة ﴿لِتَبْتَغُوا۟﴾ أي لتطلبوا لأنفسكم ﴿فَضْلًا﴾ أي رزقاً، إذ لا يتسنَّى ذلك في الليل ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ من مربيكم ورازقكم، وفي التعبير عن الرزق بالفضل، وعن الكسب بالابتغاء، دلالة على أن ليس للعبد في تحصيل الرزق تأثير، سوى الطلب، وإنما الإعطاء إلى الله سبحانه، لا بطريق الوجوب عليه، بل بفضله، بحكم الربوبيَّة للعباد ﴿وَلِتَعْلَمُوا۟﴾ أي لتعلموا بتفاوت الليل والنهار من حيث الإظلام والإضاءة ﴿عَدَدَ ٱلسِّنِينَ﴾ عدد الأيام والشهور والأعوام، لإقامة مصالحكم الدينية والدنيوية ﴿وَٱلْحِسَابَ﴾ أي حساب الأوقات أي الأشهر والأيام، ولولا ذلك لما علم أحد حساب الأوقات، ولم يدر أوقات الشرع، والديون، وغير ذلك ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ﴾ تفتقرون إليه في المعاش والمعاد ﴿فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ أي بيَّناه في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿ونزَّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء﴾ فظهر كونه هادياً للتي هي أقوم.

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ﴾ مكلف ﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ﴾ أي عمله الصادر عنه باختياره، كأنه طار إليه من عُشِّ الغيب، ووكر القَدَر، أو ما وقع له في

القسمة الأزلية، من قولهم طار له سهم كذا ﴿فِي عُنُقِهِۦ﴾ تصوير لشدة اللزوم، وكمال الارتباط، أي ألزمناه عمله بحيث لا يفارقه أبداً، بل يلزمه لزوم القلادة أو الغل للعنق، فإن كان عمله خيراً، كان كالحلي يزيِّنه، وإن شراً كان كالغُلّ يشينه ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا﴾ مسطوراً فيه ما ذكر من عمله صغيراً أو كبيراً نقيراً أو قِطميراً ﴿يَلْقَىٰهُ﴾ أي الإنسان ﴿مَنشُورًا﴾ ونظيره: ﴿وَإِذا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ قال الحسن البصري: «بُسطت لك يا بن آدم صحيفة، ووكل لك مَلَكان فهما عن يمينك وعن شمالك، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن شمالك فيحفظ سيئاتك، حتى إذا متَّ، طُويت صحيفتك، وجُعلت معك في قبرك حتى تخرج يوم القيامة، ويقال لك:

﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾.

﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ قال قتادة: يقرأ ذلك اليوم، من لم يكن قارئاً في الدنيا ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ أي نفسك والباء زائدة، واليوم ظرف لكفى، وحسيبا تمييز بمعنى الحاسب، أو بمعنى الكافي، ووضع موضع الشهيد.

﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾.

﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ أي من اهتدى بهدايته، وعمل بما فيه من الأحكام، وانتهى عما نهاه عنه فإنما تعود منفعة اهتدائه إلى نفسه، لا يتخطاه إلى غيره ممن لم يهتد، ويتأكد هذا بقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عن الطريقة التي يهديه إليها ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي فإنما وبال ضلاله عليها، لا على من عداه ممن لا يباشره والآية دالة على أن العبد متمكن من الخير والشر، وأنه غير مجبور على

عمل بعينه أصلاً ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي لا تحمل نفس حاملةٌ للوزر، وزرَ نفس أخرى، حتى يمكن تخليص النفس الثانية عن وزرها، وإنما تحمل كل منهما وزرها، وهذا تحقيق قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ وأمَّا ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ليحملوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ القِيَامَةِ، ومِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ﴾ الآية من حملِ الغير وزرَ الغير، وانتفاعِه بحسنته، فهو في الحقيقة انتفاع بحسنة نفسه، وتضرُّرٌ بسيئاتها، فإن جزاء الحسنة والسيئة، اللتين يعملهما العامل، لازمٌ له، وإنما الذي يصل إلى من يشفع جزاء شفاعته، لا جزاء أصل الحسنة، وكذا جزاء الضلال مقصورٌ على الضالين، وما يحمله المضلون إنما هو جزاء الإضلال، لا جزاء الضلال، وإنما خص التأكيد بالجملة الثانية، قطعاً للأطماع الفارغة، حيث كانوا يزعمون أنهم إن لم يكونوا على الحق، فالتبعة على أسلافهم الذين قلّدوهم، وقالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ﴾ بيان للعناية الربانية أي وما صحَّ وما استقام منا، في سنتنا المبنية على الحكم البالغة، أن نعذب أحداً اكتفاءً بقضية العقل ﴿حَتَّىٰ نَبْعَثَ﴾ إليهم ﴿رَسُولًا﴾ يهديهم إلى الحق، ويردعهم عن الضلال، ويقيم الحجج، ويمهد الشرائع، والمراد بالعذاب المنفي إمَّا عذاب الاستئصال وهو المناسب لما بعده، أو الجنس الشامل للدنيوي والأخروي.

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً﴾ أي إذا تعلقت إرادتنا بإهلاك قرية، بأن نعذّب أهلها بعذاب الاستئصال ﴿أَمَرْنَا﴾ بواسطة الرسول المبعوث إلى أهلها ﴿مُتْرَفِيهَا﴾ متنعميها وجبَّاريها، والمترف: المتنعّم الذي أبطرته النعمة خصَّهم بالذكر لأنهم أسرع إلى الحماقة، وأقدر على الفجور، وعدم التعرض للمأمور به، لظهوره، وأنَّ المراد به الحق والخير، لأن الله لا يأمر

بالفحشاء، قال أكثر المفسرين معناه: أنه تعالى أمرهم بالأعمال الصالحة، والقوم خالفُوا وفسقوا، ويدلُّ على ذلك ما قبله وما بعده، فإن الفسق هو الخروج عن الطاعة ﴿فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ أي خرجوا عن الطاعة وتمردوا ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾ أي ثبت وتحقق موجبه بحلول العذاب إثر ما ظهر منهم الفسق والطغيان ﴿فَدَمَّرْنَٰهَا﴾ بتدمير أهلها ﴿تَدْمِيرًا﴾ لا يكتنه كنهه ولا يوصف.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾ وكثيراً ما أهلكنا ﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ بيان «كم» وتمييزٌ له، والمراد به الأمم الكافرة ﴿مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ﴾ من بعد زمانه عليه السلام، كعاد، وثمود، ومن بعدهم، وعدم نظم قوم نوح في تلك القرون المهلكة، لظهور أمرهم، على أن ذكره عليه السلام رمز إلى ذكرهم ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ﴾ أي كفى ربك ﴿بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ يحيط علمه بظواهرها وبواطنها فيعاقب عليها.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ﴾ بأعماله التي يعملها سواء كان ترتب المراد عليها بطريق الجزاء كأعمال البر أو بطريق ترتب المعلولات على العلل كالأسباب أو بأعمال الآخرة فالمراد بهم الكفرة وأكثر الفسقة وأهل الرياء والنفاق ﴿ٱلْعَاجِلَةَ﴾ فقط من غير أن يريد معها الآخرة، والمراد بالعاجلة الدنيا، وبإرادتها إرادة ما فيها ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا﴾ أي في تلك الدنيا ﴿مَا نَشَآءُ﴾ أي ما نشاء تعجيله له، من نعيمها، لا كل ما يريد ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ تعجيل ما نشاء له وتقييد المعجل والمعجل له بالمشيئة والإرادة لما أن الحكمة لا تقتضي وصول كل طالب لمرامه، وهكذا الحال، ترى كثيراً من هؤلاء الفجار

يتمنون ما يتمنون، ولا يُعطون، فاجتمع عليهم فقر الدنيا، وفقر الآخرة ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا﴾ مكان ما عجلنا ﴿لَهُ جَهَنَّمَ﴾ وما فيها من أصناف العذاب ﴿يَصْلَىٰهَا﴾ يدخلها ﴿مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ مطروداً من رحمة الله، وهذا زجر عظيم لهؤلاء الضالين الذين يتركون الدين لطلب الدنيا وربما فاتتهم الدنيا، فهم الأخسرون أعمالاً الذين ضل سعيهم، ومن الجهال من ساعدته الدنيا فاغترَّ بها، وظن كون ذلك لأجل كرامته على الله تعالى، كما قال بعض المشركين: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أكثر أَمْوَالاً وَأَوْلاَدَاً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ والدنيا قد تحصل للكافر، مع أن عاقبتها المصير إلى عذاب الله.

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ﴾ بأعماله ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ أي السعي اللائق بها، وهو الإتيان بما أمر الله، والانتهاء عما نهى عنه ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ إيماناً صادقاً صحيحاً، وإيراد الإيمان بالجملة الحالية ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ للدلالة على اشتراط مقارنته ﴿فَأُولَٰٓئِكَ﴾ الجامعون للشروط الثلاثة ﴿كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ من الله تعالى أي مقبولاً عنده، فإن شكر الله تعالى، الثواب على الطاعة وعن بعض السلف، من لم يكن معه ثلاث، لم ينفعه عمله: إيمانٌ ثابت، ونيّة صادقة، وعملٌ مصيب، وتلا هذه الآية.

﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾.

﴿كُلًّا﴾ أي كل واحد من الفريقين ﴿نُّمِدُّ﴾ نزيد مرة بعد مرة، ما عُجِّل لأحدهما من العطايا العاجلة، وما أُعد للآخر من العطايا الآجلة ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الذين أرادوا الدنيا ﴿وَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ وهؤلاء المشكور سعيهم، ﴿مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ أي من عطائه الواسع، تفضلاً وإحساناً منه جلَّ وعلا ﴿وَمَا كَانَ

عَطَآءُ رَبِّكَ﴾ دنيوياً كان أو أخروياً، وإنما أظهره إظهاراً، لمزيد الاعتناء بشأنه ﴿مَحْظُورًا﴾ أي ممنوعاً ممن يريده، بل هو فائض بموجب المشيئة الإلهية.

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ ٱنظُرْ﴾ بنظر الاعتبار ﴿ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ﴾ فيما أمددناهم به من العطاء العاجل، فمن وضيع ورفيع، ومالكٍ ومملوك، وموسرٍ وصعلوك، تعرف بذلك مراتب العطايا الآجلة، ودرجات تفاوت أهلها، وقد بيَّن الله تعالى وجه الحكمة في هذا التفاوت في قوله سبحانه: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْق بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا﴾[1] وفي قوله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْق بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ﴾[2] ﴿ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ﴾ أي هي وما فيها أكبر من الدنيا ﴿ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ لأن التفاوت فيها بالجنة ودرجاتها والنار ودركاتها، روي أن قوماً من الأشراف فمن دونهم اجتمعوا في باب عمر رضي الله عنه فخرج الإذن لبلال وصهيب، فشقَّ على أبي سفيان فقال سهيل بن عمرو: دعوا إلى الإسلام فأسرعوا وأبطأنا، وهذا باب عمر فكيف التفاوت في الآخرة، قال الله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الجَنَّةِ يَوْمئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقيلاً﴾.[3]

﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾.

---

(١) سورة الزخرف، آية: ٣٢.
(٢) سورة الأنعام، آية: ١٦٥.
(٣) سورة الفرقان، آية: ٢٤.

﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ للرسول ﷺ والمراد أمته أو لكل أحد ممن يصلح لهذا الخطاب ﴿فَتَقْعُدَ﴾ جواب للنهي، والقعود بمعنى العجز من قعد عنه أي عجز عنه ﴿مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ جامعاً على نفسك الذمَّ من الملائكة والمؤمنين والخذلان من الله، والخذلانُ ضدُّ النصر والعونِ، دليلُه قوله تعالى: ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم، وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده﴾؟ جعل الخذلان بمقابلة النصر.

﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ ﴾ أي أمر أمراً مقطوعاً به ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ ﴾ بأن لا تعبدوا ﴿ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ لأن العبادة غاية التعظيم، فلا تحقُّ إلا لمن له غاية العظمة، ونهاية الإنعام ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ﴾ أي وأن تحسنوا بهما ﴿ إِحْسَٰنًا ﴾ لأنهما السبب الظاهر للوجود والحياة[1] ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا ﴾ إمَّا مركبة من «إن» الشرطية، و «ما» المزيدة لتأكيدها، ومعنى «عندك» أي في كنفك وكفالتك، وتقديمه على المفعول للتشويق، فإنه مدار تضاعف الرعاية والإحسان، ومعنى ﴿الكِبَر﴾ أنهما يبلغان إلى حالة الضعف والعجز، فيصيران عندك في آخر العمر، كما كنت عندهما في أول العمر ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾ أي لواحد منهما، و «أف» صوتٌ ينبىء عن تضجُّرٍ، أي لا تضجر بما يستقذر منهما وتستثقل من مؤونتهما، وبهذا النهي يُفهم النهي عن سائر ما يؤذيهما بدلالة النص، وقد خص بالذكر بعضه إظهاراً للاعتناء بشأنه فقيل: ﴿ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ أي لا تزجرهما عما لا يعجبك

(١) قيل كل الذنوب يؤخر اللهُ تعالى من عقوبتها ما شاء، إلاَّ عقوق الوالدين فإن الله يعجّله لصاحبه قبل الممات.

بإغلاظ، والنَّهْرُ الزجرُ والغلظةُ ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أي حسناً، جميلاً، ليناً، كما يقتضيه حسنُ الأدب معهما، مثل أن يقول يا أباه، ويا أمَّاه كدأب إبراهيم عليه السلام ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ﴾ مع ما به من الكفر، ولا يدعوهما بأسمائهما، فإنه من الجفاء وسوء الأدب، وديدن الدُعَّار والفُجَّار.

﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ هو عبارة عن لين الجانب، والتواضع لهما فإن إعزازهما لا يكون إلاَّ بذلك، والطائرُ إذا أراد تربية فرخه، خفض له جناحه، ولهذا صار خفضُ الجناح كناية عن حسن التربية والتواضع فكأنه قيل للولد: اكفِلْ والديك في حالة العجز والضعف، كما فعلا بك حال صغرك ﴿مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ من فرط رحمتك عليهما، لافتقارهما إلى من كان أفقر خلق الله إليهما بالأمس ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا﴾ وادع الله أن يرحمهما برحمته الباقية، ولا تكتف برحمتك الفانية ﴿كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ أي رحمة مثل رحمتهما لي، ولقد بالغ عزَّ وجل في التوصية بهما، حيث افتتحها بأن شفع الإحسان إليهما بتوحيده سبحانه، ونظمهما في سلك القضاء بهما معاً، ثم ضيَّق الأمر في باب مراعاتهما حتى لم يرخص في أدنى كلمة تنفلت من المتضجر، مع ما له من موجبات الضَّجَر، وختمها بأن جعل رحمته التي وسعت كل شيء مشبهة بتربيتهما، والدعاء مختص بالأبوين المسلمين، وقيل: إذا كانا كافرين يدعو الله لهما بالهداية والتوفيق، سئل سفيان كم يدعو الإنسان لوالديه؟ فقال: نرجو أن يجزيه إذا دعا لهما في أواخر التشهدات[1]. روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال:

---

(١) حقوق الوالدين على الولد كثيرة ومنها: الإنفاق عليهما، والكسوة إن احتاجا إليها، =

جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أمُّك، ثم أمُّك، ثم أمُّك، ثم أباك، ثم أدناك فأدناك»[1].

وروى مسلم عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رغم أنفه، ثم رغم أنفه، ثم رغم أنفه» قيل: من يا رسول الله؟ قال: «من أدرك أبويه عند الكِبَر أحدهما، أو كليهما ثم لم يدخل الجنة»[2] وروي أيضاً عن عبد الله بن مسعود قال: سألت رسولَ الله أيُّ الأعمال أحبُّ إلى الله؟ قال: «الصلاةُ لوقتها، قلت: ثم أيٌّ؟ قال برُّ الوالدين، قلت: ثم أيٌّ؟ قال: الجهادُ في سبيل الله»[3].

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾.

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ﴾ من البر، والعقوق، وكأنه تهديدٌ على أن يضمر لهما كراهةً واستثقالاً ﴿إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ قاصدين للصلاح والبر، دون العقوق والفساد ﴿فَإِنَّهُ﴾ تعالى ﴿كَانَ لِلْأَوَّابِينَ﴾ أي الراجعين إلى الله تعالى عما فرط منهم، مما لا يخلو عنه البشر ﴿غَفُورًا﴾ لما وقع منهم من نوع تقصير، أو أذية، ويدخل فيه الجاني على الأبوين.

= والإجابة إن دعياه، والإطاعة لهما ما لم يأمرا بالمعصية لله، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، والكلام الرفيق الليِّن، وألا يدعوهما باسمهما وإنما يقول: يا أبت، ويا أمي، وأن يمشي خلفهما، والدعاء لهما في كل صلاة وفي جميع الأوقات والأحيان: ربي ارحمهما كما رباني صغيراً.

(١) أخرجه البخاري رقم ٥٩٧١ ومسلم رقم ٢٥٤٨.

(٢) أخرجه مسلم رقم ٢٥٥١.

(٣) أخرجه البخاري رقم ٥٢٧ ومسلم رقم ٤٧.

﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾ .

﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾ المراد بهم المحارم، أقارب الرجل، وبحقهم النفقة، وإذا لم يكن من المحارم، فلا حق لهم إلا المودة، والزيارة، وحسن المعاشرة ﴿ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ أي وآت هؤلاء حقهم من الزكاة، المسكين المعدم، والغريب المنقطع في سفره ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ نهي عن صرف المال في غير الحِلّ، وغير المحلّ، فإن التبذير: تفريق الشيء في غير موضعه، مأخوذ من تفريق البذر في الأرض كيف ما اتفق، سئل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن التبذير، فقال: إنفاق المال في غير حقه، وقد أنفق بعضهم في خير فأكثر، فقال له صاحبه: لا خير في السَّرَف، فقال له المحسن: لا سَرَف في الخير.

﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ ﴾ .

﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ ﴾ تعليل للنهي عن التبذير، والمراد بالأخوة: المماثلة التامة في كل ما لا خير فيه، من صفات السوء، التي من جملتها التبذير ﴿ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ أي قرناءهم في الدنيا والآخرة، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾[1] روي أنهم كانوا ينحرون الإبل، ويبذّرون في السمعة، فنهاهم الله عن ذلك، وأمرهم بالإنفاق في القربات ﴿ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾ أي مبالغاً في كفران نعمته تعالى، وتخصيص هذا الوصف بالذكر، للإيذان بأن التبذير من باب الكفران.

---

(١) سورة الزخرف، آية: ٣٦ .

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾ أي إن أعرضت عن ذي القربى، والمسكين، وابن السبيل حياءً من التصريح بالردِّ بسبب الفقر والقلّة ﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ أي لفقد رزق ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ إقامة للمسبَّب مقام السبب، فإن الفقد سبب للابتغاء ﴿تَرْجُوهَا﴾ من الله تعالى لتعطيهم، روي أنه ﷺ كان إذا سئل شيئاً وليس عنده، أعرض عن السائل وسكت حياءً، فأُمر بتعهدهم بالقول الجميل، لئلا يعتريهم الوحشة ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ أي سهلاً ليّناً، وعدْهم وعداً جميلاً، تطيِّب به قلوبهم، أو قل رزقنا الله وإياكم من فضله.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ هما تمثيلان لمنع شُحِّ الشحيح، وإسراف المبذّر، زجراً لهما عنهما، وحملاً على ما بينهما من الاقتصاد الذي هو بين التقتير والإسراف، وهو الكرم كما قيل: «كلا طَرَفيْ قَصْدِ الأمورِ ذَميم» وحيث كان قبح الشح مقارناً له، روعي ذلك في التصوير بأقبح الصور، وغائلة الإسراف في آخره بين قبحه في أثره، فقيل: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾ أي فتصير ملوماً عند الله، وعند الناس، وعند نفسك، إذا احتجتَ وندمتَ على ما فعلتَ ﴿مَّحْسُورًا﴾ أي منقطعاً بك لا شيء عندك من المال.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ تعليل لما مر، أي يوسّعه على بعض، ويضيّقه على الآخرين، حسبما تتعلق به مشيئته التابعة للحكمة، فليس ما يرهقك من نفاد ما في يدك إذا بسطتها كل البسط إلا لمصلحتك ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ أي يعلم سرهم وعلنهم، ويعلم من مصالحهم ما يخفى عليهم، فهو تعالى يبسط تارةً، ويقبض أخرى، فاستنُّوا بسنته، ولا تقبضوا كل القبض، ولا تبسطوا كلَّ البسط، فالتفاوت في أرزاق العباد، ليس لأجل البخل، بل لأجل رعاية المصالح، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ﴾[1].

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ﴾ أي مخافة فقر، كانوا يئدون بناتهم مخافة الفقر فنهوا عن ذلك ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ فلا تخافوا الفاقة بناء على زعمكم بعجزكم عن تحصيل رزقهم، وهو ضمان لرزقهم وتعليل للنهي المذكور ﴿ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾ أي جرماً عظيماً، وذنباً كبيراً، كيف لا، وإن قرابة الأولاد قرابة الجزئية، وهي أعظم الموجبات للمحبة، فإذا أقدم الوالد على هذه العظيمة، دل ذلك على غلظ القلب، وفساد الأخلاق.

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً ۖ وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾.

---

(١) سورة الشورى، آية: ٢٧ .

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ ﴾ بإتيان المقدمات من القُبلة، والغمزة، واللمس، والنظر بشهوة، ونحوها فضلاً عن أن تباشروه، وإنما نهي عن قربانه، للمبالغة في النهي عن نفسه، ولأن الاقتراب منه داعٍ إلى مباشرته ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً ﴾ فعلة ظاهرة القبح، متجاوزة الحد فإن فيه تضييع الأنساب ﴿ وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ أي بئس طريقاً، لأنه يدفع صاحبه إلى النار، وهو طريق لقطع الأنساب أيضاً.

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى الْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ قتلها، بأن عصمها الله بالإسلام، وقولُه تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا﴾ نهيٌ وتحريمٌ، وقوله: ﴿حَرَّمَ اللهُ﴾ تأكيدٌ وتقريرٌ ﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ أي بارتكاب ما يبيح الدَّمَ، وذلك بإحدى ثلاث: كفرٍ بعد إيمان، وزِنىً بعد إحصان، وقتل نفسٍ معصومة عمداً، ودلت آية أخرى على حصول سبب رابع وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا﴾[1] الآية، وروي عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل دمُ امرىءٍ مسلم، يشهد أن لا إله إلاَّ الله، وأني رسول الله، إلا بإحدىٰ ثَلاَثٍ: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»[2] ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا ﴾ بغير حق يوجب قتله أو يبيحه للقتل، حتى إنه لا يعتبر إباحة ولي المقتول لغيره، فإن من عليه القصاص إذا قتله غير من له القصاص يقتصُّ من القاتل، ولا يفيده قول الولي أنا أمرته بذلك ما لم يكن الأمر ظاهراً ﴿ فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ ﴾ لمن يلي أمره من الوارث ﴿ سُلْطَٰنًا ﴾ أي قوة واستيلاء على

---

(١) سورة المائدة، آية: ٣٣.

(٢) أخرجه البخاري في الديات ١٢/ ٢٠١ ومسلم رقم ١٦٧٦ وأبو داود رقم ٤٣٥٢ في الحدود.

القاتل، يؤاخذه بالقصاص، أو بالدية، حسبما تقتضيه جنايته، وهو مخيَّر إن شاء استقاد منه، وإن شاء أخذ الدية، وإن شاء عفا ﴿فَلَا يُسْرِف﴾ أي الولي ﴿فِّي ٱلْقَتْلِ﴾ في أمر القتل بأن يتجاوز الحد المشروع بأن يزيد عليه المُثْلة، أو بأن يقتل غير القاتل من أقاربه، أو بأن يقتل اثنين مكان الواحد، كما كان يفعله أهل الجاهلية إذا كان المقتول شريفاً، فلا يرضون بقتل القاتل وحده، حتى يقتلوا جماعةً من أقربائه ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ الضمير للولي على معنى أنه تعالى نصره بأن أوجب له القصاص، أو الدية، وأمر الحكام بمعونته في استيفاء حقه، فلا يبغ ما وراء الحق، وظاهر الآية يدل على أن القصاص يجري بين الحر والعبد، وبين المسلم والذمي، لأن أنفسهم داخلة في الآية لكونها محرمة.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾ نهى عن قربانه، مبالغةً في النهي عن التعرض له، فلمَّا نهى الله عن إتلاف النفوس، أتبعه بالنهي عن إتلاف الأموال، لأن أعزَّ الأشياء بعد النفوس الأموال، وأحق الناس بالنهي عن إتلاف أموالهم اليتيم، لأنه لصغره وضعفه وعجزه، يعظم ضرره، بإتلاف ماله، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَنْ يَكْبَرُوا﴾[1] ﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي بالطرائق التي هي أحسن الطرق، وهي حفظه واستثمارُه ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أي حتى يبلغ سنَّ الرشد ويكمل عقله، وهي ثمانَ عشرة سنة ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ﴾ سواء جرى بينكم وبين ربكم، أو بينكم وبين غيركم، ويُؤكد هذا النصُّ بسائر الآيات، كقوله تعالى: ﴿وَالمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا

(١) سورة النساء، آية: ٦.

عَاهَدُوا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ راعُون﴾[1] والإيفاءُ بالعهد هو القيامُ بمقتضاه، والمحافظةُ عليه، ولا يستعمل إلاَّ بالباء، فَرْقاً بينه وبين الإيفاء الحسِّي كإيفاء الكيلِ والوزن ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ﴾ أظهر لكمال العناية بشأنه ﴿كَانَ مَسْئُولًا﴾ أي مسؤولاً عنه، يُسأل الناكث ويعاتب: لم نكثت؟.

﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾.

﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ﴾ أي أتموه ولا تُخسروه ﴿إِذَا كِلْتُمْ﴾ أي وقت كيلكم، وتقييد الأمر بذلك، لما أن التطفيف هناك يكون ﴿وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ﴾ أي زنوا بالميزان العادل السوي، الذي لا بخس فيه ولا زيف، والقسطاسُ الأصح أنه من لغة العرب، وهو مأخوذٌ من القسط، وهو الذي يحصل منه الاستقامة ﴿ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ أي العدل السوي، وعند استقامته لا يتصور الجور، وقد أُمر بتقويمه أيضاً في قوله تعالى: ﴿وأَوْفُوا الكَيْلَ وَالمِيزَانَ بِالقِسْطِ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي إيفاء الكيل والوزن بالميزان السوي ﴿خَيْرٌ﴾ إذ هو أمانة توجب الذكر الجميل بين الناس ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ عاقبة ومآلاً في الآخرة، واعلم أن التفاوت الحاصل بسبب نقصان الكيل والوزن قليل، والوعيد الحاصل عليه شديد عظيم، فالعاقل من يحترز منه.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَلَا تَقْفُ﴾ ولا تتبع، من قَفا أثره إذا تبعه ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي

(١) سورة المؤمنون، آية: ٨.

لا تكن في اتباع ما لا علم لك به، من قولٍ، أو فعل، كمن يتبع مسلكاً لا يدري أنه يوصله إلى مقصده، ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي كل واحد من تلك الأعضاء، فأُجريت مجرى العقلاء، لمَّا كانت مسؤولة عن أحوالها، وشاهدة على أصحابها ﴿كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ أي كان كلٌّ من تلك الأعضاء مسؤولاً عما فعل به صاحبه، ومن الدعاء المأثور «اللهمَّ إني أعوذ بك من شرّ سمعي، وشرِّ بصري، وشرِّ فؤادي، وشرِّ لساني، وشر قلبي، وشرِّ مَنِيِّي يعني ماءه وذَكَرهُ»[1].

﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ التقييد بها لزيادة التقرير، والإشعار بأن المشي عليها مما لا يليق بالمتكبّر ﴿مَرَحًا ۖ﴾ تكبراً وبطراً واختيالاً وفي سورة الفرقان: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً﴾[2] ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ فيه تهكم بالمختال، وإيذانٌ بأن ذلك مفاخرةٌ مع الأرض، وتكبرٌ عليها، أي لن تخرق الأرض بدوسك ووطأتك عليها ﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ﴾ التي هي بعض أجزاء الأرض ﴿طُولًا﴾ حتى يمكن لك أن تتكبر عليها، إذ التكبر بكثرة القوة، وعِظَم الجُثَّة، وكلاهما مفقود في الإنسان، وكأن الآية تقول: إنك أيها الإنسان هزيل ضئيل، لا يليق بك الشموخ والكبرياء، كيف تتكبر وتختال وأنت أضعف من الأرض والجبال؟.

﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾.

---

(١) أخرجه أبو داود، رقم ١٥٥١ والترمذي رقم ٣٤٨٧ والنسائي ٨/ ٢٥٩.
(٢) سورة الفرقان، آية: ٦٣.

﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى الأوامر، والنواهي، من الخصال الخمس والعشرين ﴿ كَانَ سَيِّئُهُۥ ﴾ أي كان عمله القبيح الذي نهي عنه، وهي اثنتا عشرة خصلة ﴿ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ مبغضاً غير مرضيٍّ عند الله تعالى.

﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي الذي تقدَّم من الأوامر والنواهي ﴿ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ ﴾ أي بعض منه ﴿ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ ﴾ التي هي من الأحكام التي لا يتطرق إليها النسخ، وهي واجبة الرعاية في جميع الأديان ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ أي لا تشرك مع الله غيره من صنم أو بشر، وكرره للتنبيه على أن التوحيد، مبدأ الأمر ومنتهاه، وأنه رأس الحكمة وغايته ﴿ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا ﴾ أي تلوم نفسك، ويلومك الناس والملائكة ﴿ مَّدْحُورًا ﴾ مبعداً من رحمة الله تعالى، وفي إيراد الإلقاء، ازدراءٌ بالمشركين، وجعلٌ لهم من قبيل خَشَبة، يأخذها آخذ، فيطرحها في النار.

﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ ﴾ الإصفاء بالشيء: جعلُه خالصاً، والهمزة للإنكار، أي أفضَّلكم على جنابه، فخصَّكم بأفضل الأولاد، وآثَرَ لذاته أخسَّها؟ وهو توبيخ للعرب في مزاعمهم الباطلة، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَىٰ﴾؟ وقوله: ﴿أَمْ لَهُ البَنَاتُ ولَكُمُ البَنُونَ﴾؟ ﴿ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ ﴾ بمقتضى مذهبكم الباطل، في إضافة البنات إلى الله سبحانه ﴿ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ أي كلاماً عظيماً في بشاعته وشناعته، مخالفاً لقضايا العقول، بحيث لا يجترىء عليه أحد، حيث تجعلونه تعالى من قبيل الأجسام،

ثم تضيفون إليه ما تكرهون، وتفضلون عليه أنفسكم بالبنين، ثم تصفون الملائكة الذين هم أشرف الخلائق بالأنوثة، فيا لها من ضلالةٍ ما أقبحها!!.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ أي بيَّنا هذا المعنى، وكرَّرناه، يعني العِبَر، والحِكَم، والأمثال، والأحكام، والحِجج، والأخبار ﴿فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ على وجوه من التصريف في مواضع منه ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ ما فيه، ويقضوا على بطلان ما يقولونه، أي كرَّرناه ليتَّعظوا ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ أي والحال ما يزيدهم ذلك البيان والتذكير البديع ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ عن الحقّ، وإعراضاً عنه، فضلاً عن التذكر، وكان الثوري رحمه الله إذا قرأها يقول: يا ربِّ زادني خضوعاً، ما زاد أعداءك نفوراً.

﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾.

﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ أي كما يقول المشركون، والمراد بالمشابهة: الموافقةُ والمطابقة ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟﴾ جواب عن مقالتهم أي لطلبوا ﴿إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ أي إلى من له الملك والربوبية على الإطلاق ﴿سَبِيلًا﴾ بالمغالبة والممانعة، كما هو ديدن الملوك بعضهم مع بعض، كقوله سبحانه: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾.

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾.

﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ أي تنَّزه ذاته تنزهاً حقيقياً ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾ تباعد وتقدّس ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ من العظيمة أن معه آلهة، وأن يكون له بنات ﴿عُلُوًّا﴾ تعالياً ﴿كَبِيرًا﴾ لا غاية وراءه، كيف لا وأنه عزَّ وجلَّ في أقصى غاية الوجود الذاتي، وما يقولونه من أن له شريكاً وأولاداً، في أبعد مراتب العدم أعني الامتناع!!.

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾ .

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ ﴾ من الملائكة، والإنس، والجن، على أن المراد بالتسبيح معنى منتظم لما ينطق به لسان المقال، ولسان الحال، بطريق عموم المجاز ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ ﴾ من الأشياء حيواناً كان، أو نباتاً، أو جماداً ﴿ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ أي يقول: سبحان الله وبحمده، أي ينزّه الله تعالى بلسان الحال، عما لا يليق بذاته الأقدس، إذ ما من موجود إلاَّ وهو يدلُّ على أن له صانعاً، عليماً قادراً، حكيماً واجباً لذاته، أو يُسبِّحه بلسان المقال، فإنَّ كلَّ موجود في الكون، له تسبيح خاص به، ولهذا قال ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ ﴾ أيها المشركون، لإخلالكم بالنظر الصحيح الذي به يفهم ذلك، عن ابن عمر رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يخطب إلى جذع، فلمَّا اتخذ المنبر، تحوَّل إليه، فحنَّ الجذع فمسح بيده الشريفة عليه»[1] ففي الأحاديث أن الجمادات والحيوانات تُسبِّح الله عزَّ وجل بطريقة لا نفهمها نحن كما قال تعالى: ﴿والطَّيْرُ صَافَّات كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وتَسبْيحَهُ﴾. وقال البعض: تسبيح الجمادات والحيوانات بلسان الحال، والقولُ الأول أصح لما دلت عليه الأحاديث، وأنه منقول عن السلف ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا ﴾ ولذلك لم يعاجلكم بالعقوبة، مع ما أنتم عليه من موجباتها، من الإشراك، والغفلة ﴿ غَفُورًا ﴾ لمن تاب منكم.

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ ﴾ .

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ الناطق بالتسبيح، ودعوتهم إلى العمل بما فيه

---

(١) حديث حنين الجذع أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الأنبياء.

من التوحيد، ورفض الشرك، وغير ذلك من الشرائع ﴿جَعَلْنَا﴾ بقدرتنا ومشيئتنا المبنية على الحكم الخفية ﴿بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أوثر الموصول ذماً لهم ﴿حِجَابًا﴾ يحجبهم من أن يدركوا نبوّتك ليفهموا قدرك ﴿مَّسْتُورًا﴾ مستوراً عن الحسِّ، يحجب عنهم فهم القرآن وإدراك أسراره الدقيقة.

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾.

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي جعلنا على قلوب هؤلاء الكفار المكذبين بالقرآن، أغطية وحجباً لئلا يفهموا القرآن، كما جعلنا على آذانهم صمماً يمنعهم من استماعه ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ﴾ أي أفردته بالذكر غير مشفوع بآلهتهم ﴿وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ﴾ رجعوا على أعقابهم أي هربوا ونفروا ﴿نُفُورًا﴾ هرباً من استماع الإيمان والتوحيد، كانت قريش إذا سمعوا من القرآن ذم المشركين وآلهتهم فروا هرباً من سماعه.

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾﴾.

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ﴾ أي نحن عالمون بما يدعوهم إلى الاستماع له، وبالغاية التي يستمعون إلى القرآن من أجلها، وهي اللغوُ، والاستخفاف، والهزء بك وبالقرآن وأنت تقرأ كتاب ربك ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ ظرف لأعلمُ، وفائدته تأكيد الوعيد بالإخبار، أي حين يستمعون إليك وأنت تتلو القرآن ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ﴾ أي وحين يتحدثون ويتناجون به فيما بينهم سراً ﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ﴾ أي حين يقول أولئك الفجرة عن الرسول ﷺ

﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾ أي ما تتبعون إن وجد منكم الاتباع ﴿إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ أي سُحر فجُنَّ.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي مثَّلوك بالشاعر، والساحر، والمجنون ﴿فَضَلُّوا۟﴾ في جميع ذلك عن منهاج المحاجة ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ أي لا يجدون طريقاً إلى الهدى والرشاد، فيخبطون في كلامهم بدون تبصر.

﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾ استفهام إنكاري، والاستنكار للبعث لما بينَ غضاضة الحيّ، ويبوسة الرميم من التنافي، والرُّفاتُ: ما بُولغ دقُّه وتفتيتُه، وقال الفراء: هو الترابُ ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ تحلية الجملة بإن واللام لتأكيد الإنكار، وفيه من الدلالة على غلوهم في الكفر، وتماديهم في الضلال ﴿خَلْقًا جَدِيدًا﴾ أي مخلوقاً مجدداً؟ قال الله تعالى رداً عليهم.

﴿قُلْ﴾ أي قل يا أيها الرسول جواباً لهم ﴿كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ أي كونوا من الحجارة والحديد فسيبعثكُم اللهُ ويحييكم، والأمر هنا أمر تعجيز وتوبيخ، لا أمرُ إلزام ليصبحوا من الحجارة والحديد.

﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾﴾.

﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ﴾ أي يعظم عندكم عن قبول الحياة فإنكم مبعوثون لا محالة، والمعنى: إنكم تستبعدون أن يجدِّد اللهُ خلقكم،

بعدما صرتم عظاماً يابسة، مع أن العظام بعض أجزاء الحي، فليس ببدْعٍ أن يردَّكم الله إلى الحالة الأولى، ولكنْ لو كنتم أبعد شيء من الحياة، وهو أن تكونوا حجارةً، أو حديداً، لكان الله قادراً على أن يردَّكم إلى حال الحياة، فكيف لا يقدر على إعادتكم إذا صرتم عظاماً ورفاتا؟ ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾؟ مع ما بيننا وبين الإعادة من مثل هذه المباينة؟ ﴿قُلِ﴾ لهم تحقيقاً للحق، وإرشاداً لهم إلى طريقة الاستدلال ﴿ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ﴾ أي يردُّكم الذي خلقكم ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ واخترعكم من غير مثال وكنتم تراباً، فمن قَدرَ على الإنشاء، قَدَر على الإعادة، ومتى سلمنا بكمال علم الله، وكمال قدرته، زالت هذه الشبهة ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ أي سيحرِّكونها نحوك، تعجباً وإنكاراً ﴿وَيَقُولُونَ﴾ استهزاءً ﴿مَتَىٰ هُوَ﴾؟ أي ما ذكرته من الإعادة ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ﴾ ذلك ﴿قَرِيبًا﴾ فإن كل ما آتٍ قريب، و«عسى» للوجوب، فإن قالوا: فكيف يكون قريباً وقد انقرض ما يزيد على ألف عام ولم يظهر؟ قلنا: إذا كان ما مضى أكثر مما بقي كان أقل، فعمر الدنيا طويل، وما بقي منها إلا القليل!!.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ من قبوركم إلى الموقف للمحاسبة، وهو النفخة الأخيرة كما قال الله تعالى: ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾[1] وهو إسرافيل عليه السلام ينادي الأموات ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ﴾ أي فتُبعثون استعير لها الدعاء، والإجابة، إيذاناً بكمال سرعتهما، وبأن المقصود منهما الإحضار للمحاسبة والجزاء ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ أي منقادين له حامدين له على كمال قدرته عند مشاهدة آثارها، عن سعيد بن جبير أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) سورة ق، آية: ٤١.

«ليس على أهل لا إله إلاَّ الله، وحشةٌ في قبورهم، كأنيّ بأهل لا إله إلا الله يقومون من قبورهم، ينفضون التراب عن رؤوسهم» ويقولون: «سبحانك اللهم وبحمدك»[1] ﴿وَتَظُنُّونَ﴾ عندما ترون ما ترون ﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾ أي ما لبثتم في القبور ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ لما ترون من الهول.

﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾.

﴿وَقُل لِّعِبَادِي﴾ أي للمؤمنين ولفظ العباد في أكثر آيات القرآن مختص بالمؤمنين، قال الله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ﴾[2] ويمكن أن يراد من العباد الكفار، لأن المقصود من هذه الآيات الدعوة فلا يبعد أن يخاطبوا بالخطاب الحسن ﴿يَقُولُوا﴾ عند مخاطبة المشركين ﴿الَّتِي﴾ أي الكلمة التي ﴿هِيَ أَحْسَنُ﴾ ولا يخاشنوهم، كقوله تعالى: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الكِتَابِ إلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[3] ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ﴾ يفسد ويهيج الشرَّ ﴿بَيْنَهُمْ﴾ فلعل ذلك يؤدي إلى تأكد العناد، وتمادي الفساد ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ أي ظاهر العداوة.

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾﴾.

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ تفسير للتي هي أحسن، وما بينهما اعتراض، أي

---

(١) الحديث أخرجه الطبراني، وفي رواية يقولون ﴿الحمدُ للهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ﴾ وانظر مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٣٨٢.

(٢) سورة الإنسان، آية: ٦.

(٣) سورة العنكبوت، آية: ٤٦.

قولوا لهم هذه الكلمة ونحوها، ولا تصرّحوا بأنهم من أهل النار، فإنه يهيجهم على الشرّ، مع أن اختتام أمرهم غيب، لا يعلمه إلاّ الله ﴿إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾ بالتوفيق للإيمان ﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ بالإماتة على الكفر ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ موكولاً إليك أمرهم، تقسرهم على الإيمان وإنما أرسلناك مبشراً ونذيراً، فدارهم ومرْ أصحابك بالمداراة، والاحتمال، وترك المشاقة.

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾.

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ﴾ وتفاصيل أحوالهم التي بها يستأهلون الاصطفاء، فيختار منهم لنبوته من يشاء، وهو ردٌّ عليهم إذ قالوا: بعيدٌ أن يكون يتيم أبي طالب نبياً، وأن يكون العراة الجُوَّعُ أصحاب الجنة، دون أن يكون ذلك من الأكابر والصناديد!! ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ﴾ بالفضائل النفسانية، لا بكثرة الأموال والأتباع ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ بيان لحيثية تفضيل داود عليه السلام، فإن ذلك بإيتاء الزبور، لا بإيتاء الملك والسلطنة، وفيه إيذان بتفضيل الرسول ﷺ فإن نعوته الجليلة، وكونه خاتم النبيين، مسطورة في الزبور، وأن المراد بعباد الله الصالحين في قوله تعالى: ﴿أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ هو الرسول ﷺ وأمته، والزبور يشتمل على مائة وخمسين سورة، كلها دعاء وثناء، ليس فيه أحكام.

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾.

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ إنها آلهة ليس المراد بها الأصنام، لأنه تعالى قال في صفتهم: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الوَسِيلَةَ﴾ فهذه الآية نزلت فيمن عبدوا

الملائكة، والمسيح، وعزير لا في الأوثان ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ من الملائكة والمسيح ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ﴾ فلا يستطيعون ﴿كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ﴾ كالمرض، والفقر، والقحط، ونحو ذلك ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ أي ولا تحويل ذلك عنكم إلى غيركم، فمن لا يقدر لا يكون إلهاً.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أي الآلهة الذين يدعوهم المشركون ﴿يَبْتَغُونَ﴾ يطلبون لأنفسهم ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمُ﴾ ومالك أمرهم ﴿ٱلْوَسِيلَةَ﴾ القربة بالطاعة والعبادة ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ أي يبتغي من هو أقرب منهم، إلى الله تعالى الوسيلة، فكيف بغير الأقرب؟ ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ﴾ بها ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ بتركها كدأب سائر العباد، فكيف تزعمون أنهم آلهة؟ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ حقيقاً بأن يحذره كل أحد، حتى الملائكة والرسل عليهم السلام.

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾.

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ﴾ كلمة «إن» نافية، و«من» زائدة للتأكيد، والمراد بالقرية القرية الكافرة، أي ما من قرية من قرى الكفار ﴿إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا﴾ أي مخربوها البتة بالخسف بها، أو بإهلاك أهلها بالمرة، لما ارتكبوا من عظائم الموبقات المستوجبة لذلك ﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ وإنما قيل قبل يوم القيامة، لأن الإهلاك يومئذ، غير مختص بالكافرة، ولا هو بطريق العقوبة، إنما هو لانقضاء عمر الدنيا ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا﴾ أي معذبو أهلها ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ بفنون العقوبات الأخروية، حسبما يفصح عنه إطلاق التعذيب، كيف لا وكثير من القرى العاتية، أُخِّرت عقوبتها إلى يوم

القيامة، ﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾ ما ذكر من الإهلاك والتعذيب ﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ في اللوح المحفوظ ﴿مَسْطُورًا﴾ مكتوباً لم يغادر منه شيء إلا بُيِّن فيه.

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾.

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ﴾ التي اقترحها المشركون من قلب الصفا ذهباً، وأن تُنحَّى الجبال عنهم، ليزرعوا ونحو ذلك ﴿إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ﴾ أي الأمم السابقة كذبوا بها حين جاءتهم باقتراحهم، وعدم إرسالها لا لمنع مانع عنه، بل لإفضائه إلى أن يحل بهم مثل ما حلَّ بالمكذبين السابقين، بحكم التكذيب، المستدعي للاستئصال، المخالف لما جرى به قلم القضاء، من تأخير عقوبات هذه الأمة إلى الآخرة، لحكم باهرة، من جملتها ما يتوهم من إيمان بعض أعقابهم، ولهذا عبَّر عن تلك المنافاة بالمنع، أي ما تركنا إجابتهم إلى ما طلبوا واقترحوا، من إحياء الموتى، وإجراء الأنهار، وإزالة الجبال، إلاَّ لعلمنا بعدم إيمانهم، وأنهم لو أعطوها لكذَّبوا، كما فعل أسلافهم الأولون، وعند ذلك يستحقون عذاب الاستئصال، والله سبحانه يعلم أنَّ من أبنائهم من يؤمن بالله، فلذلك لم يجبهم إلى ما طلبوا، لئلا يهلكوا كما هلك السابقون.

ثم ذكر بعض الأمم المهلكة بتكذيب الآيات المقترحة فقال: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ﴾ بسؤالهم ﴿مُبْصِرَةً﴾ آية بينة ذات إبصار أو بصائر تدركها الناس ﴿فَظَلَمُوا۟﴾ فكفروا ﴿بِهَا ۚ﴾ ظالمين لأنفسهم ولم يكتفوا بمجرد الكفر بها، بل فعلوا بها ما فعلوا من العقر، وتخصيصها بالذكر لما أن ثمود عرب مثلهم، وأن لهم من العلم بحالهم حيث يشاهدون آثار هلاكهم ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ أي وما نرسل بالآيات الكونية، كالزلازل، والفيضانات، والصواعق، والرعد، إلا تخويفاً للعبَاد، لما يعقبها من العذاب المستأصل.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ ﴾ .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ۚ ﴾ علماً، فلا يخفى عليه شيء، من أفعالهم الماضية والمستقبلة، من الكفر والتكذيب فلا تبال بهم ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾ المراد بالرؤيا ما عاينه ﷺ ليلة المعراج، حسبما ذُكر في فاتحة السورة الكريمة، والتعبيرُ عن ذلك بالرؤيا لأنها وقعت في الليل، والعرب تقول: رأيت بعيني رؤيةً، ورؤيا، قال البخاري عن ابن عباس: «هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به، وليست برؤيا منام»[1] أي وما جعلنا الرؤيا التي أريناكها عياناً، مع كونها آية عظيمة، وحقيقة ملموسة، إلا فتنة افتتن بها الناس، حتى ارتد بعضهم عن الإسلام ﴿ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ۚ ﴾ المراد بلعنها: لعن طاعمها، أو إبعادها عن الرحمة، فإنها تنبت في أصل الجحيم، في أبعد مكان من الرحمة، والعرب تقول لكل طعام مكروه وضار: إنه ملعون، ويعني بها شجرة الزقوم، التي وصفها الله تعالى في سورة الدخان في قوله سبحانه: ﴿إن شجرة الزقوم طعام الأثيم. كالمهل يغلي في البطون. كغلي الحميم﴾[2] أي وما جعلناها إلا فتنة لهم، حيث أنكروا ذلك، وقالوا: إن محمداً يزعم أن الجحيم يحرق الحجارة، ثم يقول ينبت فيها الشجر!! ولقد ضلُّوا في ذلك ضلالاً بعيداً، حيث كابروا قضية عقولهم، فإنهم يرون النعامة تبتلع الجمر فلا تضرها، ويشاهدون المناديل المتخذة من وَبَرِ السَّمَندل تُلْقى في النار، فلا تؤثر فيها ولا تحرقها، ويرون أن في كل شجرة ناراً، فجاز أن

---

(١) انظر صحيح البخاري كتاب التفسير تفسير سورة الإسراء ٨/ ٣٩٨.

(٢) سورة الدخان، الآيات: ٤٣ ـ ٤٦.

يخلق في النار شجرة لا تحرقها النار [1] ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ بذلك وبنظائرها من الآيات، فإن الكل للتخويف، وإيثار صيغة الاستقبال للدلالة على التجدد والاستمرار ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ التخويف ﴿إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ متجاوزاً عن الحد، فلو أرسلنا بما اقترحوه من الآيات، لفعلوا بها ما فعلوا بنظائرها، ولا يزدادون إلا تمادياً في الجهل والعناد، وإذا كان الأمر كذلك وجب في الحكمة أن لا يظهر الله لهم ما اقترحوه من الآيات.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ أي اذكر يا محمد حين أمرنا الملائكة بالسجود لآدم، فامتثلوا للأمر وسجدوا له إلا إبليس اللعين، تكبَّر وتجبَّر، وعصى أمر ربه، والآية تحقيق لمضمون ما سبق من قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ الآية، ويعلم من حال الملائكة حال غيرهم، من عيسى وعزير عليهما السلام، ومن حال إبليس حال من يعاند الحقَّ، لأنهم إنما عاندوه لأمرين: الكبر، والحسد، وهذه بليَّةٌ للخلق ﴿قَالَ﴾ أي عندما وُبِّخ بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ لَا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾؟ ﴿ءَأَسْجُدُ﴾ وأنا من عنصر عال ﴿لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ نصب على نزع الخافض أي أأسجد لمن خلقته من طين؟ فاستحقَّ بذلك اللَّعن والطرد من رحمة الله.

﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾.

---

(١) هناك ثياب يلبسها رجال الإطفاء ويقتحمون النار بها فلا تحرقها، فلا يستبعد العاقل على قدرة الله، أن تنبت شجرة في النار ولا تأكلها النار، ونحن نرى في عصرنا غرائب وعجائب من صنع الإنسان، فكيف بخالق الأكوان؟.

﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ ﴾ الكاف للتأكيد أي أخبرني عن ﴿ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ ﴾ لم كرمته؟ ومراده الاستحقار ﴿ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ ﴾ حياً ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ واللام للقسم وجوابه ﴿ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ ﴾ لأستأصلنَّهم بالإغواء كقوله: ﴿ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ منهم، وهم المخلصون الذين عصمهم الله تعالى.

﴿ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ٱذْهَبْ ﴾ أي امض لشأنك الذي اخترته وهو طرد له، وتخلية ما بينه وبين ما سولت له نفسه ﴿ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ ﴾ أي جزاؤك وجزاؤهم، فغلّب المخاطبُ على الغائب ﴿ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴾ أي جزاءً كاملاً وافراً، لا ينقص لكم منه شيء.

﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ ﴾.

﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم ﴾ استخفَّ واستعجل، وأزعج من استطعتَ أن تستفزَّه ﴿ بِصَوْتِكَ ﴾ أي بدعائك لهم إلى الفساد ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم ﴾ أي صحْ عليهم، من الجَلَبة وهي الصياح ﴿ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ بأعوانك من راجل وراكب، من أهل الفساد، قال ابن عباس: إن له خيلاً ورَجِلاً من الإنس والجن، فما كان من راكبٍ يقاتل في معصية الله فهو من خيل إبليس، ومن كان يقاتل في معصية الله، فهو من رَجُل إبليس، والرَّجِلُ: اسم جمع للراجل، كالصحب والركب ويجوز أن يكون استفزازه، تمثيلاً لتسلُّطه على من يغويه ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ ﴾ بحملهم على كسبها، وجمعها من الحرام، والتصرف فيها بإنفاقها في المعاصي ﴿ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾ بالحث على التوصل

إليهم بالأسباب المحرمة، والإضلال لهم بالحمل على الأديان الزائغة، والحِرَف الذميمة، والأفعال القبيحة ﴿وَعِدْهُمْ﴾ المواعيد الباطلة، كشفاعة الآلهة، والاتكاء على كرامة الآباء، وتأخير التوبة بطول الأمل ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أي وما يعدهم إلا خِداعاً وتضليلاً بوساوسه الكاذبة.

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾.

﴿إِنَّ عِبَادِي﴾ الإضافة للتشريف، وهم المخلصون من المؤمنين الصادقين ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ أي تسلط وقدرة على إغوائهم ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ أي عاصماً وحافظاً لهم من كيدك وشرك، يتوكلون عليه، للخلاص عن إغوائك، والتعرض لوصف الربوبية للإشعار بكيفية كفايته تعالى لهم، أعني سلب قوته، عن إغوائهم بدفع كيده، ويعصمهم من إغوائه، وقد استشكل بعض المتكلمين، خطاب الرب سبحانه للشيطان، وأمر الله تعالى إياه بإغواء البشر، بقوله تعالى: ﴿واسْتَفزِزْ﴾ الآية مع قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بِالفَحْشَاءِ﴾ الآية؟.

وإنما يشكل هذا كله على ما جَرَوْا عليه من جعل الخطاب للتكليف، أمَّا إذا جعل الخطاب للتكوين، كما صرح به ابن كثير فلا إشكال[1]، لأنه عبارة عن بيان الواقع في صفة طبيعة الشيطان.

﴿رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾﴾.

﴿رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ﴾ الإزجاء السَّوْقُ حالاً بعد

(١) قال الحافظ ابن كثير ٢/ ٣٨٧: هذا أمرٌ قَدَريٌّ، ومعناه: تسلَّطْ عليهم بكل ما تقدر عليه. ا هـ أقول: لا يراد به أن الله عزَّ وجلَّ يأمره بإغواء البشر، وفتنتهم عن الدين، بطرقه الخبيثة، وإنما هو بيان لصفة طبيعة الشيطان، فتنبَّهْ والله يرعاك.

حال، أي هو القادر الحكيم، الذي يسوق لمنافعكم الفُلْك، ويُجريها في البحر ﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ من رزقه الذي هو فضل من قِبَله، وهذا تذكير لبعض النعم التي هي دلائل التوحيد، والمقصود الأعظم في هذا الكتاب الكريم دلائل التوحيد، فإذا امتد الكلام في فصل من الفصول، عاد الكلام إلى ذكر دلائل التوحيد ﴿إِنَّهُۥ كَانَ﴾ أي أَزَلاً وأَبَداً ﴿بِكُمْ رَحِيمًا﴾ حيث هيأ لكم ما تحتاجون إليه، والمراد بالرحمة: الرحمةُ الدنيوية، وفي قوله تعالى: ﴿رَبُّكُمُ﴾ وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ﴾ الضمير عام في حقِّ الكل.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾ خوف الغرق ﴿فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ﴾ ذهب عن خواطركم ﴿مَن تَدْعُونَ﴾ كل من تدعونه من دون الله، من الملائكة، والمسيح أو غيرهم ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ وحده، من غير أن يخطر ببالكم أحد منهم، وتدعوه لكشفه، أو ضلَّ من تدعونه من إغاثتكم وإنقاذكم، ولم يقدر على ذلك إلا الله عزَّ وجل ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ﴾ من الغرق وأوصلكم ﴿إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ عن التوحيد ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ للنعم، والصيغة للمبالغة، أي كثير الكفران لنعم الرحمن.

﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾﴾.

﴿أَفَأَمِنتُمْ﴾ الهمزة للإنكار، أي نجوتم فحملكم ذلك على الإعراض ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ الذي هو مأمنكم أي يقلبه الله عليكم ملتبساً بكم، وحاصل المعنى: أن الجوانب كلها بالنسبة إلى قدرته عزَّ وجلَّ سواء، براً كانت أو بحراً، ليس جانب البحر وحده، مختصاً بسبب الهلاك، بل إن كان الغرق في جانب البحر، ففي جانب البرِّ الخسفُ

والزلازلُ، والفيضانات ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ ريحاً ترمي بالحصباء أي نمطر عليكم حجارة من السماء ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ يحفظكم عن ذلك، أو يصرفه عنكم، فإنه لا رادَّ لأمره الغالب.

﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾.

﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ﴾ أي يعيدكم في البحر ﴿تَارَةً﴾ مرة ﴿أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا﴾ أي عاصفاً ﴿مِّنَ الرِّيحِ﴾ وهي التي لا تمرُّ بشيء إلاَّ كسرته، أو الريح التي لها قصف وهو الصوتُ الشديد ﴿فَيُغْرِقَكُم﴾ بعد كسر سفينتكم كما ينبىء عنه عنوان القصف ﴿بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ بسبب إشراككم وكفرانكم لنعمة الإنجاء ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾ أي ثائراً متابعاً، يطالبنا بما فعلنا، دَرْكاً للثأر، كما يفعله الأقوياء.

﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ الطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾.

﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ أي كرمناهم بحسن الصورة، واعتدال القامة، والتمييز بالعقل، والإفهام بالنطق، والخط والاهتداء إلى أسباب المعاش، وغير ذلك مما لا يكاد يحيط به نطاق العبارة، ومن جملة ذلك أن كل حيوان يتناول طعامه بفمه إلا الإنسان، فإنه يرفعه إليه بيده ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ على الدواب والسفن، وليس من المخلوقات شيءٌ كذلك ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ الطَّيِّبَٰتِ﴾ فنون النعم، وضروب المستلذّات ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ﴾ في العلوم، والإدراكات بما ركَّبنا فيهم من القوى المدركة، التي بها يتميز الحقُّ من الباطل، والحُسْنُ من القبح ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا﴾ وهم ما عدا الملائكة، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «المؤمنُ أكرم على الله من الملائكة، لأنهم مجبولون على الطاعة، ففيهم عقلٌ بلا شهوة،

وفي البهائم شهوةٌ بلا عقل، وفي الآدمي كلاهما، فمن غلب عقله شهوته، فهو أكرم من الملائكة، ومن غلبت شهوته على عقله فهو شر من البهائم» ﴿تَفْضِيلًا﴾ عظيماً، فحقَّ عليهم أن يشكروا هذه النعم، ولا يكفروها، وليس فيه دلالة على أفضلية الملائكة، فإن المراد ههنا بيان التفضيل في أمر مشترك بين جميع أفراد البشر صالحها وطالحها، ولا يمكن أن يكون ذلك هو الفضل في عظيم الدرجة، وزيادة القربة عند الله سبحانه.

﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾﴾.

﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ﴾ أي ندعو كل شخص من بني آدم، وهذا شروع في بيان تفاوت أحوالهم في الآخرة، بحسب أعمالهم وأحوالهم في الدنيا، وقوله سبحانه: ﴿بِإِمَٰمِهِمْ ۖ﴾ أي بكتاب أعمالهم فيقال: «يا أهل كتاب الخير، ويا أهل كتاب الشر» ويدل على أن المراد بالإمام هو كتاب الأعمال، قوله سبحانه: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿فَمَنْ أُوتِىَ﴾ يومئذ من أولئك المدعوين ﴿كِتَٰبَهُۥ﴾ صحيفة أعماله ﴿بِيَمِينِهِۦ﴾ إبانةً لخطر الكتاب المؤتى، وتشريفاً لصاحبه، وتبشيراً له بما في مطاويه ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى «مَنْ» باعتبار معناه، إيذاناً بأنهم حزبٌ مجتمعون على شأن جليل ﴿يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ﴾ الذي أوتوه على الوجه المبين، ابتهاجاً وتبجحاً بما يرون فيه من الحسنات ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا يُنقصون من أجور أعمالهم، بل يُؤتونها مضاعفة ﴿فَتِيلًا﴾ أي قدر فتيل، وهو القشرة التي في شِقِّ النواة، أو أدنى شيء كان، والفتيل مَثَلٌ في القلة والحقارة.

﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾.

﴿وَمَن كَانَ﴾ من المدعوين المذكورين ﴿فِى هَٰذِهِۦٓ﴾ الدنيا التي فُعل

بهم ما فُعل، من فنون التكريم والتفضيل ﴿أَعْمَىٰ﴾ فاقد البصيرة لا يهتدي إلى رشده، ولا يعرف ما أوليناه به من التكريم، فضلاً عن شكرها، والقيام بحقوقها ﴿فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ أي لا يهتدي إلى ما ينجيه، لأن العمى الأول موجب للثاني، وفيه قولان: **الأول**: عمى البصيرة، **والثاني**: عمى العين، كما قال الله تعالى: ﴿ونَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَى. قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً؟ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَها وَكَذَلِكَ اليَوْمَ تُنْسَىٰ﴾[1] ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي من الأعمى فاقد البصر، لزوال الاستعداد، وتعطيل الآلات بالكلية.

﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾﴾.

﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ نزلت في وفد ثقيف إذ قالوا للرسول ﷺ لا ندخل في أمرك حتى تعطينا خصالاً نفتخر بها على العرب، وأن تحرم وادينا كما تحرم مكة وإن قالت العرب لم فعلت فقل إن الله أمرني بذلك فأمسك رسول الله ﷺ عنهم، وداخلهم الطمع فصاح عليهم عمر وقال: أَمَا ترون رسول الله ﷺ قد أمسك عن الكلام، كراهيةً لما تذكرونه، فأنزل الله هذه الآية والمشركون كانوا يسعون في إبطال أمره ﷺ، فتارة كانوا يقولون: «إن عبدت آلهتنا عبدنا إلهتك» فأنزل الله: ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ السورة وعرضوا عليه الأموال الكثيرة، والنساء الجميلة، ليترك الدعوة، فأنزل الله تعالى: ﴿ولاَ تَمُدَنَّ عَيْنَيْكَ إِلىَ مَا مَتَّعْنَا﴾ الآية. أي قاربوا أن يفتنوك أي يخدعوك ﴿عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ من أوامرنا ونواهينا ﴿لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ﴾ لتقول علينا غير الذي أوحينا إليك ﴿وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ أي لو اتبعتهم على أهوائهم لكنت لهم خليلاً، ولخرجت من ولايتي.

---

(١) سورة طه، آية: ١٢٥ ـ ١٢٦.

﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾.

﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾ على ما أنت عليه من الحقِّ بعصمتنا لك ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ من الركون الذي هو أدنى ميل، أي لولا تثبيتنا لك، لقاربت أن تميل إليهم شيئاً يسيراً، من الميل اليسير، لقوة خدعهم، لكنْ أدركتك العصمة، فمنعتك من أن تقرب من أدنى مراتب الركون إليهم، وهذا صريح في أنه ﷺ ما همَّ بإجابتهم، ودليلٌ على أن العصمة بتوفيق الله تعالى، وعنايته، وهذا تهييجٌ من الله تعالى له، فلما نزلت كان ﷺ يقول: «اللهمَّ لا تكلني إلى نفسي طرفة عين».

﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾.

﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ أي لو قاربت أن تركن إليهم أدنى ميل ﴿لأذَقْنَاكَ﴾ عذاب الدنيا والآخرة، ضعف ما يُعذَّب به في الدارين، بمثل هذا الفعل غيُرك، لأن خطأ الخطير أخطر، وكان أصل الكلام عذاباً ضعفاً في الحياة، وعذاباً ضعفاً في الممات، بمعنى مضاعفاً وقيل: ضعف الممات «عذاب القبر» ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ يدفع عنك العذاب، وينصرك منا.

«التقليد الأعمى للأجانب»

لقد ضعفت في هذا العصر عصبية المذاهب، ولا سيما في الفروع، فإن الجهل بحقيقته صار عاماً، وبعض العلماء أعماهم التقليد، عن النظر في مصالح الأمة، والسير بالقضاء والإدارة والسياسة، على ما تجددت عليه المصالح، حتى اقتنع حكامها الجاهلون في أكثر البلاد، بأن الشريعة لم تعد كافية، فصاروا يقلدون الإفرنج فيما اشترعوا لأنفسهم من القوانين،

التي يرونها موافقة لعاداتهم، وآدابهم، وعقائدهم، وتقاليدهم، وإن لم تكن موافقة للمسلمين في شيء من ذلك، ولم يعقلوا ما في هذا التقليد من المفاسد السياسية والاجتماعية، المضعف للأمة في دينها ودنياها، بل حسبوا بجهلهم أنهم بهذا يكونون كالدول الأوروبية، في عزتها وثروتها، فكانت عاقبة هذا الإغواء أن سلبهم أولئك المغوون ملكهم، وجعلوهم أسلحة وآلات بأيديهم يذللون بهم أممهم، فلم يستطيعوا أن يقضوا على استقلال مملكة إسلامية، وقد اجتهد أولئك الطامعون المغوون بإفساد أفكار الشعوب الإسلامية وقلوبها فبثوا فيها الدعاة الفسقة، لتشكيكها في القرآن والنبوّة، ومنهم من يشكك في أصل الدين، أي وجود الإلّه وبعثة الرسل، كما بثوا فيها دعاة السياسة، يرغّبونها في قطع الرابطة الدينية، التي تربط بعضها ببعض، واستبدال الرابطة الجنسية أو الوطنية بها، فكانت عاقبة ذلك، وقوع العداوة بين الترك والعرب، غيَّر هؤلاء بفساد أمرائهم وزعمائهم ما بأنفسهم، فغيَّر الله ما بهم، وسلبهم عزَّهم، وسلطانهم، وهؤلاء هم: ﴿الذينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعَاً﴾[1]!!.

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾.

﴿وَإِن كَادُواْ﴾ أي أهل مكة ﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ أي ليزعجونك بمعاداتهم ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي أرض مكة ﴿لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ﴾ همَّ المشركون أن يخرجوه منها، فكفهم الله تعالى عنه، حتى أمره بالهجرة، فخرج بنفسه ﷺ ﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ﴾ أي لا يبقون ﴿خِلَٰفَكَ﴾ أي بعدك ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي إلاَّ زماناً قليلاً، وقد كان كذلك، فإنهم أُهلكوا ببدر بعد هجرته ﷺ بسَنة.

---

(١) سورة الكهف، آية: ١٠٤.

﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾ .

﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ ﴾ أي سنَّ الله سنةً، والمعنى: هذه عادة الله جل وعلا مع رسله، أن يهلك كل أمة، أخرجت رسولها من بين أظهرهم، وإضافتها إلى الرسل، لأنها سُنَّت لأجلهم، على ما ينطق به قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ أي تغييراً وتبديلاً.

﴿ أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ ﴾ .

﴿ أَقِمِ الصَّلَوٰةَ ﴾ أي حافظ على الصلوات في أوقاتها لكي ينصرك الله، أمره تعالى بالإقبال على عبادته، لكي ينصره عليهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى ما يَقولونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ الآية ﴿ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ ﴾ الدُّلوكُ: هو الزوالُ، وهو قول عطاء وقتادة، ومجاهد، وأكثر التابعين، والآية جامعة لمواقيت الصلاة كلها، فدلوك الشمس يتناول الظهر والعصر ﴿ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ ﴾ أي ظهور ظلمته، وهذا يتناول المغرب والعشاء، وليس المراد إقامتها فيما بين الوقتين على وجه الاستمرار، بل إقامة كل صلاة في وقتها، الذي عُيِّن لها ببيان جبريل عليه السلام ﴿ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ ۖ ﴾ أي صلاة الفجر، سميت قرآناً لأنه ركنه ولطول قراءتها ﴿ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ تشهده ملائكة الليل والنهار، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تفضُل صلاةُ الجمع، صلاةَ أحدكم وحده، بخمس وعشرين جزءاً، وتجتمع ملائكة الليلِ وملائكةُ النهار في صلاة الفجر، ثم يقول أبو هريرة اقرؤوا إن شئتم ﴿إِنَّ قُرْآنَ الفَجرِ كَانَ مَشهُوداً﴾»[1].

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٦٤٥ بنحوه.

﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴿٧٩﴾ ﴾.

﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ ﴾ أي قم بعض الليل ﴿ فَتَهَجَّدۡ ﴾ أي أزل وألق الهجود عنك أي النوم وتعبد ربك في ظلمة الليل تطوعاً ﴿ بِهِۦ ﴾ أي بالقرآن ﴿ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ فريضة زائدة على الصلوات المفروضة، خاصة بك، زيادة له ﷺ في الدرجات ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ ﴾ الذي يبلغك إلى كمالك بعد الموت الأكبر، كما انبعثتَ من النوم الذي هو الموت الأصغر بالصلاة والعبادة ﴿ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾ عندك وعند جميع الناس، وفيه تهوين لمشقة قيام الليل عن المغيرة بن شعبة قال: قام رسول الله ﷺ حتى انتفخت قدماه، فقيل له أتتكلف هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»[1] عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يسمع النداء: اللهمَّ ربَّ هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة، والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدتَه، حلَّتْ له شفاعتي يوم القيامة»[2].

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ﴿٨٠﴾ ﴾.

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي ﴾ أي القبر ﴿ مُدۡخَلَ صِدۡقٖ ﴾ أي إدخالاً مرضياً ﴿ وَأَخۡرِجۡنِي ﴾ منه عند البعث ﴿ مُخۡرَجَ صِدۡقٖ ﴾ أي إخراجاً مرضياً ملقىً بالكرامة وقيل: المراد إدخال المدينة والإخراج من مكة، ﴿ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ﴾ حجة تنصرني على من يخالفني، وعزّاً ناصراً للإسلام،

(١) أخرجه البخاري رقم ١١٣٠ ومسلم في المنافقين رقم ٢٨١٩.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه رقم ٦١٤.

مظهراً له على الكفر، فأجيبت دعوتُه ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ أَلاَ إن حزب الله هم الغالبون.

﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾.

﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ ﴾ الإسلام والقرآن ﴿ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ ﴾ أي ذهب وهلك الشرك والكفر، من زهق روحه إذا خرج ﴿ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ أي شأنه أن يكون مضمحلاً، غير ثابت، وهو عِدَةٌ كريمة بإجابة الدعاء، عن عبد الله ابن مسعود قال: دخل النبي ﷺ مكة يوم الفتح وكان حول البيت ثلاثمائة وستون صنماً، فجعل يطعنها بعود في يده، ويقول: «جاء الحقُّ وزهقَ الباطل، إنَّ الباطل كان زهوقاً، جاء الحقُّ وما يُبدىء الباطلُ وما يعيد»[1].

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾.

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ ﴾ لما في الصدور، شفاءٌ للأمراض الباطنة، والظاهرة، فالأمراض الباطنة إما اعتقادات فاسدة، وإما أخلاق ذميمة، فالقرآن الكريم مشتمل على الدلائل القاطعة لمذاهب الحق، ولإبطال المذاهب الفاسدة، ومشتمل أيضاً على التنفير من الأخلاق المذمومة، والإرشاد إلى الأخلاق المحمودة والأعمال الفاضلة، وأما كونه شفاءً، من الأمراض الجسمانية، فإن التبرك بقراءته يدفع كثيراً من الأمراض، يدل عليه قوله ﷺ في فاتحة الكتاب «وما يدريك أنها رُقية»؟[2]

---

(١) أخرجه البخاري ٨/ ١٤ في المغازي ومسلم رقم ١٧٨١ في الجهاد.

(٢) هذا طرف من حديث شريف أخرجه البخاري في قصة الصحابي الذي رقى بفاتحة الكتاب رئيس قبيلة فشفي بإذن الله، فلما أخبر الرسول ﷺ بذلك، قال له: «وما يدريك أنها رقية»؟

ولما اعترف الجمهور من الفلاسفة بأن لقراءة الرُّقَىٰ المجهولة، التي لا يُفهم منها شيءٌ آثاراً في تحصيل المنافع، ودفع المفاسد، فلأن تكون قراءة هذا القرآن العظيم، المشتمل على ذكر الله، وكبريائه، سبباً لحصول النفع، كان أولى ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ أي تفريجٌ للكروب، وتطهيرٌ للعيوب، وتكفير للذنوب ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ و «مِنْ» بيانية، فإن القرآن كلَّه شفاء ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي لا يزيد القرآن الكافرين المكذبين، إلاَّ شقاءً وبلاء، وهلاكاً ودماراً، فإنَّ ما بهم من داء الكفر والضلال، حقيق بأن يكون سبباً للشقاء والهلاك، فسماع القرآن الكريم يزيدهم غيظاً وغضباً، وحقداً وحسداً، وهذه الأخلاق الذميمة تدعوهم إلى الأعمال الباطلة والهلاك المؤبد، وإسناد الزيادة للقرآن مع أنهم هم المزدادون في ذلك، بسوء صنيعهم، باعتبار كونه سبباً لذلك، وفيه تعجيبٌ من أمر القرآن العظيم، حيث يكون مداراً للشفاء والهلاك.

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ ﴾ بالصحة والنعمة ﴿أَعْرَضَ﴾ عن ذكرنا فضلاً عن القيام بموجب الشكر ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ تأكيد للإعراض، والنأي بالجانب عبارة عن الاستكبار، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَىٰ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ من فقر، أو مرض، أو نازلة من النوازل ﴿كَانَ يَـُٔوسًا﴾ أي شديد اليأس من روحنا «ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون»، وهذا وصفٌ للجنس باعتبار بعض أفراده، ولا ينافيه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ﴾ ونظائره، فإن ذلك شأن بعض الآخرين منهم، وفي إسناد المساس إلى الشر، بعد إسناد الإنعام إلى ضمير الجلالة، إيذانٌ بأن الخير مرادٌ بالذات، والشر ليس كذلك.

﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴾ .

﴿ قُلْ كُلٌّ ﴾ أي كلُّ أحد منكم وممن هو على خلافكم ﴿ يَعْمَلُ ﴾ عمله ﴿ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾ أي على طريقته التي تشاكل حاله في الهُدىٰ والضلال، والعقلاء اختلفوا في أن النفوس البشرية، هل هي مختلفة بالماهية أم لا؟ منهم من قال بالأول، وقال: إن اختلاف أفعالها وأحوالها لأجل اختلاف جواهرها وماهيتها، ومنهم من قال متساوية في الماهية، واختلاف أفعالها لاختلاف أمزجتها، والمختار عندي هو الأول، والقرآن مشعرٌ بذلك، وذلك لأنه تعالى بيَّن في الآية المتقدمة، أن القرآن بالنسبة إلى البعض يفيد الشفاء والرحمة، وبالنسبة إلى الآخرين يفيد الخسار والخزي، ثم أتبعه بقوله: ﴿قُل كُلٌّ يَعمَلُ عَلى شَاكِلَتِهِ﴾ ومعناه أن اللائق بتلك النفوس الطاهرة أن يظهر فيها من القرآن آثار الذكاء والكمال، وبتلك النفوس الكدرة، أن يظهر فيها من القرآن آثار الخزي والضلال، كما أن الشمس تعقِدُ الملحَ، وتُليِّن الدّهن، وتبيض ثوب القصار، وتسوّد وجهه، فكل أحد يفعل على وفق ما شاكل جوهر نفسه، فإن كانت نفسه مشرقةً طاهرة خيِّرة، صدرت عنه أفعال فاضلة، وإن كانت نفسه كدرةً خبيثةً، صدرت عنه أفعال خسيسة وفاسدة ﴿ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾ .

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ .

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ ﴾ أي ربكم جلَّ وعلا أعلم بالمهتدي والضال منكم، وسيجزي كلَّ عامل بعمله، عن عبد الله بن مسعود قال: «بينا أنا أمشي مع النبي ﷺ، فمر بنفرٍ من اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح؟ فقام إليه رجل منهم، فقال يا أبا القاسم: ما الروح»؟ فأمسك النبي ﷺ فلم يردَّ عليهم شيئاً، فعلمتُ أنه يوحى إليه، فقمتُ مقامي، فأنزل الله

عزَّ وجلَّ ﴿ويسألونك عن الروح...﴾[1] الآية وعن ابن عباس أن السائل إنما سأله بتكليف من اليهود، والظاهر أن السؤال كان عن حقيقة الروح، الذي هو يدبِّر البدن الإنساني، ومبدأ حياته ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ كلمة «مِنْ» بيانية، أي الروح من إبداع الله عزَّ وجلَّ من غير تولُّد من أصل، والأمر بمعنى الشأن والإضافة للاختصاص، أي أمر الروح من جنس ما استأثر الله بعلمه، من الأمور الخفية، التي لا يكاد يحوم حولها عقول البشر ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي وما علمكم أيها البشر جميعاً، إلا شيء قليل وضئيل، بالنسبة لعلم الله جلَّ وعلا، وهذا العلم تستفيدونه من طرق الحواس، فإن تعلق المعارف النظرية، إنما هو من إحساس الجزئيات، ولذلك قيل: من فَقَد حِسَّاً فقد فَقَدَ علماً، ولعل أكثر الأشياء لا يدركه الحسُّ، ولا شيئاً من أحواله، التي يدور عليها معرفة ذاته، فثبت أن أكثر الماهية والحقائق مجهولة، والحكمة في ذلك تعجيز العقل عن إدراك مخلوق مجاورٍ له، ليدلَّ على أنه عن إدراك ذات خالقه أعجز، وما قيل في تعريف الروح أنه جسم دقيق هوائي، في كل جزءٍ من الحيوان، وقال بعضهم: هو الدم، وقال قوم هو نفس الحيوان، بدليل أنه يموت باحتباس النفس، وقال قوم هو جسمٌ لطيف يحيا به الحيوان، كل ذلك مما لا دليل عليه، وإنما هو تكهن، وأولى الأقوال بالصواب أن يوكل علمه إلى الله تعالى، وهو قول أهل السنة.

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ ﴾.

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ من القرآن الذي هو شفاء ورحمة للمؤمنين، ومنبعٌ للعلوم، واللام الأولى موطّئة للقسَم، و«لنذهبن»

(١) الحديث أخرجه الشيخان عن ابن مسعود وانظر فتح الباري ٨/ ٤٠١ كتاب التفسير.

جوابه النائب مناب جزاء الشرط، فالمعنى: إن شئنا ذهبنا بالقرآن، ومحوناه من الصدور والمصاحف، وهذا وإن كان أمراً مخالفاً للعادة، إلاَّ أنه تعالى قادر عليه ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ﴾ أي بالقرآن ﴿عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ أي من يتوكل استرداده، مسطوراً محفوظاً.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ﴾ أي إلاَّ أن يرحمك ربك فيردَّه عليك، ويجوز أن يكون استثناءً منقطعاً، بمعنى: ولكنْ رحمةً من ربك، تركتُه غير مذهوب به، فيكون امتناناً على رسوله، بإبقائه في صدره بعد المنَّة بتنزيله، وترغيباً في المحافظة على أداء حقوقه ﴿إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ بجعلك رسولاً، وإنزال الكتاب عليك، وإبقائه في حفظك، وجعلك سيد ولد آدم، وختم النبيّين بك، وإعطائك المقام المحمود، فلما كان كذلك، لا جرم أنعم عليك، بإبقاء العلم في صدرك، وإنزال القرآن عليك.

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾.

﴿قُل﴾ للذين لا يعرفون جلالة قدر التنزيل، ولا يفهمون فخامة شأنه الجليل، بل يزعمون أنه من كلام البشر ﴿لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ﴾ اتفقت ﴿ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ المنعوت بما لا تدركه العقول من النعوت الجليلة، في البلاغة، وحسن النظم، وكمال المعنى وتخصيص الثقلين بالذِّكر، لأن المنكر لكونه من عند الله منهما لا من غيرهما، لا لأن غيرهما قادر على المعارضة ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ أي لا يأتون بكلام مماثلٍ له، فيما ذكر من الصفات البديعية، وفيهم أربابُ البراعة والبيان، وهو جواب القسم ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ أي ولو اجتمع أرباب الفصاحة والبيان، من الإنس والجان، وتعاونوا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لم

يقدروا على ذلك، نزلت الآية الكريمة حين قال المشركون: لو نشاء لقلنا مثل هذا، فكذَّبهم الله عزَّ وجلَّ، لأنه كلام الخالق، لا كلام المخلوق، وهم أعجز من أن يأتوا بمثل سورة منه!!.

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا ﴾ كرَّرنا وردَّدنا الحجج والبراهين ﴿ لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ ﴾ أي بيَّنا للناس في هذا الكتاب المعجز ﴿ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ من كل معنى بديع، هو في الحسن والغرابة، ووقوعه في الأنفس كالمثل، ليتلقوه بالقبول ﴿ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ ﴾ المراد بأكثر الناس أكثر أهل مكة، وهم الكفار، أوثر الإظهار تأكيداً وتوضيحاً ﴿ إِلَّا كُفُورًا ﴾ أي إلاَّ تكذيباً للحق وجحوداً لآيات الله.

﴿ وَقَالُوا۟ ﴾ عند ظهور عجزهم عن معارضة القرآن ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ أي أرض مكة ﴿ يَنۢبُوعًا ﴾ عيناً لا ينضب ماؤها، تتدفق خلال وديان مكة.

﴿ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ ﴾.

﴿ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ ﴾ بستان تستر أشجارُهُ ما تحتها ﴿ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴾ أي تجريها بقوة ﴿ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴾ كثيراً، والمراد سقيها وإدامة إجرائها بقوةٍ وغزارة.

﴿ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ ﴾.

﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ جمع كِسْفة كقِطعة وقِطَع، لفظاً ومعنى، أي إسقاطاً مماثلاً لما زعمت كما كنت تخوّفنا ﴿أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ أي مقابلاً أو كفيلاً بما تقول، وشاهداً يشهد بصحة ما تدَّعيه من أنك رسول الله.

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾.

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ من ذهب، وأصله الزينة ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي في معارجها، فحذف المضاف يقال رقى في السلم ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ أي لأجل رقيك فيها وحدَه ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا﴾ فيه تصديقك ﴿نَّقْرَؤُهُۥ﴾ نحن بأنفسنا من غير أن يتلقى من قبلك ﴿قُلْ﴾ تعجباً من شدة شكيمتهم، وتنزيهاً لساحة الرب جلَّ وعلا من مثل هذه الاقتراحات ﴿سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا﴾ لا مَلَكاً حتى يتصور لي الرقيُّ في السماء ﴿رَّسُولًا﴾ مأموراً من قِبَل ربي لتبليغ الرسالة كسائر الرسل؟ **روي عن ابن عباس** «أن رؤساء قريش اجتمعوا عند الكعبة، فبعثوا إلى الرسول ﷺ فجاءهم فقالوا يا محمد: إنَّا والله لا نعلمُ رجلاً من العرب، أدخل على قومه ما أدخلت على قومك!! لقد عبتَ الدينَ، وسفَّهتَ الأحلام، وشتمت الآلهة، وفرَّقت الجماعة، فإن كنتَ جئتَ بهذا الحديث تطلب به مالاً، جعلنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد الشرف، سوَّدناك علينا، وإن كان هذا الذي بك رئياً تراه، قد غلب عليك، بذلنا لك أموالنا في طلب الطبِّ حتى نبرئك منه (وكانوا يسمون التابع من الجن الرئي) فقال ﷺ: ما بي ما تقولون، وما جئتكم بما جئتكم به لطلب المال، ولا للشرف عليكم، ولكنَّ الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليَّ كتاباً، وأمرني أن أكون بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالة ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني فهو حظُّكم من الدنيا والآخرة، وإن تردُّوه عليَّ أصبر

لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم»[1]، فلما قال ذلك، تفوَّهوا بالاقتراحات الباطلة وما كانوا يقصدون بتلك الاقتراحات، إلا الاستهزاء، واللَّجاج، والعناد.

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾.

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ ﴾ الذين حكيت أباطيلهم يعني أهل مكة ﴿ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ أي النبي والقرآن المعجز، أي ما منعهم الإيمان بعد ظهور الحق، أن يؤمنوا بالقرآن وبنبوتك ﴿ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ ﴾ أي إلاَّ قولهم ﴿ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ منكرين أن يكون رسول الله، من جنس البشر مرسلاً إلى الخلق فلماذا يكون بشراً ولا يكون مَلَكاً؟! وفيه إيذانٌ بكمال عنادهم، حيث جعلوا بعثة الرسول من البشر، مانعاً لهم من الإيمان، ولم يستبعدوا أن تكون آلهتهم من الحجر!!.

﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾.

﴿ قُل ﴾ تبياناً للحكمة، وتحقيقاً للحق المزيح للريب ﴿ لَّوْ كَانَ ﴾ لو وُجد واستقر ﴿ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ بدل البشر ﴿ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ ﴾ كما يمشي بنو آدم ﴿ مُطْمَئِنِّينَ ﴾ ساكنين وقارين فيها ﴿ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ يهديهم إلى الحق، لتمكنهم من الاجتماع به والتلقي عنه، لأن الجنس إلى الجنس أميل، وأما عامة البشر فبعث الملك إليهم، معارضٌ

(١) انظر تنوير الأذهان من تفسير روح البيان ٢/ ٣٦٣ بتحقيقنا، ومختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٣٩٩.

للحكمة التي عليها بُني التكوينُ والتشريع، وإنما يُبعث المَلَك من بينهم إلى الخواص، المختصين بالنفوس الزكية، المؤيدين بالقوة القدسية، المتعلقين بالعالم الروحاني، والجسماني، ليتلقوا من جانب، ويلقوا إلى جانب.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾.

﴿قُلْ﴾ لهم ثانياً من جهتك ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ وحده ﴿شَهِيدًۢا﴾ على أني أديت ما عليَّ من مواجب الرسالة أكمل أداء، وأنكم فعلتم ما فعلتم من التكذيب والعناد ﴿بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ﴾ وإنما لم يقل: بيننا، تحقيقاً للمفارقة، وإبانة للمباينة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ﴾ من الرسل والمرسل إليهم ﴿خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ محيطاً بظواهر أحوالهم وبواطنها، فيجازيكم على ذلك، وفيه تسلية للرسول ﷺ، وتهديد للكفار.

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾.

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ أي من يهده الله إلى الحق بما جاء من قبله من الهدى ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ﴾ فهو المهتدي إلى كل مطلوب ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ أي يخلق فيه الضلال، بسوء اختياره كهؤلاء المعاندين ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ﴾ أوثر ضمير الجماعة باعتبار المعنى للفظ «مَنْ» في مقابلة الإفراد، نظراً إلى لفظهما، تلويحاً بوحدة طريق الحق، وقلة سالكيه، وتعدد سبيل الضلال وكثرة الضالين ﴿أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ﴾ من دون الله تعالى، أي أنصاراً يهدونهم إلى طريق الحق، وإلى طريق النجاة من العذاب، الذي يستدعيه ضلالهم

﴿وَنَحْشُرُهُمْ﴾ التفاتٌ من الغَيْبَة إلى التكلم، إيذاناً بكمال الاعتناء بأمر الحشر ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ أي كائنين عليها سحباً أو يمشون بها كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ روى الشيخان عن أنسٍ أن رجلاً قال: يا رسول الله ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ كيف يحشر الكافرُ على وجهه؟ قال رسول الله ﷺ: «أليس الله الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا، قادراً أن يُمشيه على وجهه يوم القيامة؟ قال قتادة حين بلغه: بلىٰ وعزَّةِ ربنا»[1] ﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ روي أن واحداً قال لابن عباس: أليس أنه تعالى يقول: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ﴾ وقال: ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ وقال: ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ فثبت بهذه الآيات أنهم يرون، ويسمعون، ويتكلمون، فكيف قال ههنا: ﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾؟ قال ابن عباس: أي إنهم لا يبصرون ما يُقِرُّ أعينَهم، ولا يسمعون ما يَلذُّ مسامعَهم، ولا ينطقون ما يُقبل منهم، لأنهم كانوا في الدنيا لا يستبصرون بالآيات والعبر، ولا ينطقون بالحق، ولا يستمعونه، ويجوز أن يُحشروا بعد الحساب من الموقف إلى النار، عمياً وبكماً وصماً، وقبل ذلك كانوا يسمعون ويبصرون ويتكلمون، فإن إدراكاتهم في بعض المواطن، ممَّا لا ريب فيه ﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ﴾ أي مستقرهم ومقامهم في نار جهنم، كلما سكن لهبها، بأن أكلت جلودهم ولحومهم ﴿زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا﴾ توقداً بأن بدّلناهم جلوداً غيرها، فعادت ملتهبة، عقوبةً لهم على إنكارهم الإعادة، ليروها عياناً حيث لم يعلموها برهاناً.

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم﴾ أي العذاب المذكور ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي بسبب أنهم

(١) الحديث أخرجه البخاري ١١/ ٣٧٧ في الحشر، ومسلم رقم ٢٨٥٩ في الحشر أيضاً.

﴿ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ العقلية، والنقلية، الدالة على الإعادة بعد الإفناء ﴿ وَقَالُوٓاْ ﴾ منكرين ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ أي هل سنبعث بعد أن نصبح ذرات متفتتة، وعظاماً نخرة بالية؟

﴿ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَـٰدِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾ .

﴿ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ أي ألم يتفكروا ويعلموا ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ من غير مادة مع عظمها ﴿ قَـٰدِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ فإنهم ليسوا أشد خلقاً منهن، ولا الإعادة أصعب من الإبداء، والمراد بالخلق الإعادة كما عبَّر عنها بذلك حيث قال: ﴿ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ ﴿ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾ والمعنى: قد علموا أن من قدر على خلق السموات والأرض، فهو قادر على خلق أمثالهم من الإنس، وجعل لهم ولبعثهم أجلاً محققاً لا ريب فيه، هو يوم القيامة ﴿ فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ وضع الظاهر ﴿ الظالمون ﴾ موضع الضمير، تسجيلاً عليهم بالظلم، وتجاوز الحد ﴿ إِلَّا كُفُورًا ﴾ أي جحوداً وعناداً، مع وضوح الحق والدليل.

﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ ﴾ .

﴿ قُل ﴾ للكفار الذين طلبوا منك إجراء الأنهار والعيون، في بلدتهم لتكثر أموالهم ﴿ لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ ﴾ خزائن رزقه التي أفاضها على كافة الموجودات ﴿ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ ﴾ أي لبخلتم ﴿ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ ﴾ أي مخافة النفاد بالإنفاق ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا ﴾ أي مبالغاً في البخل، لأن مبنى أمره على الحاجة، والضِنَّةِ بما يحتاج إليه، وليس في الدنيا أحدٌ إلا وهو يختار النفع لنفسه، ولو آثر غيره بشيء، فإنما يؤثره لِعوضٍ يفوقه، فإذاً هو

بخيل، بالنسبة إلى جود الله سبحانه، فإن قيل: قد يوجد في الناس من هو جواد كريم، فكيف يوصف بالبخل؟ قلت: الأصلُ في الإنسان البخلُ، لأنه خُلق محتاجاً، والمحتاج لا بدَّ أن يحبَّ ما يدفع عنه ضرر الحاجة ويمسكه لنفسه، إلا أنه قد يجود لأسباب خارجية، مثل أن يحبَّ المدح، أو رجاء الثواب.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ أي لقد أعطينا موسى الكليم تسع معجزات خارقة، واضحة الدلالة على صدق رسالته، وصحة ما جاء به من عند الله، وهي: اليد، والعصا، والطوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم، وانفلاق البحر، والأخذ بالسنين أي القحط لآل فرعون، وله خوارق أخرى، منها انفجار الماء من الحجر، ونتق الطور، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى، ونحوها من المعجزات، لم تكن منزلة إذْ ذاك، وفي تفسير قوله تعالى: ﴿تسع آياتٍ بينات﴾ روي قول آخر ورد في حديث شريف عن صفوان بن عسَّال أنه قال: «إن يهودياً قال لصاحبه: اذهبْ بنا إلى هذا النبي، نسأله عن تسع آيات؟ فذهبا إلى النبي ﷺ وسألاه عنها، فقال هنَّ: أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا، ولا تسحروا، ولا تأكلوا الربا، ولا تقذفوا المحصنة، ولا تولوا الفرار من الزحف، وعليكم خاصَّة اليهود أن لا تعتدوا في السبت، فقام اليهوديان فقبَّلا يديه وقالوا: نشهد أنك نبيٌّ ولولا أن نخاف القتل اتبعناك»[1] ﴿ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، أي فاسألهم يا محمد عن تلك الآيات، لتزداد يقيناً بما يوحى إليك، وليظهر صدقك عندهم ﴿ إِذْ جَآءَهُمْ ﴾ يعني

(١) الحديث أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣١٤٤ وقال: حسن صحيح.

حين جاء موسى عليه السلام إلى فرعونَ بالرسالة ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ﴾ أي فأظهر عند فرعون ما آتيناه من الآيات البينات وبلَّغه ما أُرسل به، فقال له فرعون ﴿إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾[1] أي سُحرتَ فتخبَّط عقلُك.

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الآيات التي أظهرها ﴿إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي خالقهما، والتعرض لربوبيته تعالى لهما، للإيذان بأنه لا يقدر على تلك الآيات، إلا خالقهما ومربيهما ﴿بَصَآئِرَ﴾ أي بيِّناتٍ مكشوفات، تبصِّرك صدقي، ولكنك تعاند ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ مصروفاً عن الخير، مطبوعاً على الشرّ، ولقد قارع عليه السلام ظنَّه بظنِّه، وشتَّان ما بين الظَنّيْن، كيف لا وظنُّ فرعون إفكٌ مبين، وظنُّه عليه السلام يحوم حول اليقين!!.

﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿فَأَرَادَ﴾ فرعون ﴿أَن يَسْتَفِزَّهُم﴾ أي أن يستخف موسى عليه السلام وقومه، وينفيهم ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أرض مصر، أو من الأرض مطلقاً بالاستئصال ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾ أي فعكسنا عليه مكره، واستَفْزَزْناه وقومه بالإغراق، ولا يحيق المكر السَّيِّىء إلاَّ بأهله.

﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾.

---

(١) الظنُّ هنا بمعنى العلم وإنما عبَّر بالظن ليقابل قول فرعون له ﴿لَأَظُنُّكَ يا موسىٰ مَسْحُورًا﴾.

﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ أي من بعد إغراقهم ﴿ لِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ ﴾ التي أراد أن يستفزكم منها ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ أي فإذا جاء وقت قيام القيامة ﴿ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ مختلطين ثم نحكم بينكم، واللفيف الجماعات المختلفة من أجناس شتى.

﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ ﴾.

﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ ﴾ أي وما أنزلنا القرآن إلا ملتبساً بالحقِّ المقتضي لإنزاله، وما نزل إلا ملتبساً بالحق الذي اشتمل عليه، ولعل المراد بيان عدم اعتراء البطلان له أول الأمر وآخره ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا ﴾ للمطيع بالثواب ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ للعاصين بالعقاب.

﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ ﴾.

﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ ﴾ أي نزَّلناه مفرَّقاً ومنجَّماً دلالة على كثرة آياته ﴿ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾ على مهلٍ وتؤده، فإنه أيسر للحفظ وأعون على الفهم ﴿ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة، وعلى حسب الحوادث، نزل به جبريل الأمين، على قلب خاتم المرسلين، وفيه الهدى والشفاء. قال الراوي: اشتكى محمد بن السِماك، فأخذنا ماءه وذهبنا به إلى طبيب، فاستقبلنا رجلٌ حسن الوجه، طيب الرائحة، نقيُّ الثوب، فقال لنا: إلى أين؟ فقلنا له إلى فلان الطبيب، نريه ماء ابن السماك، فقال: سبحان الله، تستعينون على وليِّ الله بعدوٍّ؟ ارجعوا إلى ابن السمَاك وقولوا له: ضعْ يدكَ على موضع الوجع، وقل: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالحَقِّ نَزَلَ﴾ ثم غاب فلم نره، فرجعنا إلى ابن السماك فأخبرناه بذلك، فوضع يده على موضع الوجع، فقال ما قال الرجل، وعوفي في الوقت.

﴿ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ .

﴿ قُلْ ﴾ للذين كفروا على وجه التهديد والإنكار ﴿ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ ﴾ بالقرآن ﴿ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ﴾ فإن إيمانكم به لا يزيده كمالاً، وامتناعكم عنه لا يورثه نقصاً، والله تعالى أوضح البينات والدلائل، فاختاروا النعيم المقيم، أو العذاب الأليم، وفيه وعيد وتهديد ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ ﴾ أي العلماء الذين قرؤوا الكتب السالفة، من قبل تنزيله، وعرفوا حقيقة الوحي، وأمارات النبوة، وتمكنوا من معرفة الحق والباطل، وهم مؤمنو أهل الكتاب، منهم «زيد بن عَمرو بن نُفيل، وورقةُ بن نوفل، وعبدُ الله بن سلام» ونحوهم ﴿ إِذَا يُتْلَىٰ ﴾ أي القرآن العظيم ﴿ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ ﴾ أي يسقطون على وجوههم ﴿ سُجَّدًا ﴾ تعظيماً لأمر الله، وشكراً لإنجاز ما وعد به في تلك الكتب من بعثتك، وتخصيصُ الأذقان بالذكر، للدلالة على كمال التذلل، وهو كناية عن غاية الخشوع، والمقصود من ذكر هذا اللفظ، مسارعتهم إلى السجود، حتى إنهم يسقطون سجداً لله أي إن لم تؤمنوا به، فقد آمن به مَن هو خير منكم.

﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ .

﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ في سجودهم ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ ﴾ عما يقول الكفرة من التكذيب، وعن خُلفِ الوعد ﴿ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ «إنْ» مخفَّفة من الثقيلة، أي إن الحال والشأن أن وعد الله حقٌّ، واقع لا محالة، لأن الله لا يخلف الميعاد.

﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ ﴾ كرَّر الخرور لاختلاف السبب، فإن الأول لتعظيم أمر الله، والثاني: لما أثَّر فيهم من مواعظ القرآن، حال كونهم

باكين من خشية الله ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ أي القرآن بسماعهم ﴿خُشُوعًا﴾ لين قلب ورطوبة عين، كما يزيدهم علماً ويقيناً لله تعالى. عن ابن عباس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «عينان لا تمسهما النار، عينٌ بكت من خشية الله، وعين باتت تحرسُ في سبيل الله»[1].

﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾.

﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ﴾ نزل حين سمع المشركون رسول الله ﷺ يقول: يا ألله، يا رحمنُ، فقالوا: إنه ينهانا عن عبادة إلَهين، وهو يدعو إلَهاً آخر، والمراد هنا في الآية: التسويةُ بين اللفظين، بأنهما عبارتان عن ذات واحدة، والتوحيد إنما هو للذات والدعاءُ بمعنى التسمية و أو للتخيير ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ﴾ والتنوينُ في ﴿أَيًّا﴾ عوضٌ عن المضاف إليه، وأصل الكلام أياً ما تدعو فهو حسن، فوضع موضعه ﴿فَلَهُ الأَسمَاءُ الحُسنَىٰ﴾ للمبالغة، والدلالة على ما هو الدليل عليه، إذْ حُسْنُ جميع أسمائه، يستدعي حسن الاسمين الجليلين لدلالتهما على صفات الكمال ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ أي لا تجهرْ بالقراءة في صلاتك، بحيث تُسمع المشركين، فإن ذلك يحملهم على السبِّ واللَّغو فيها، ولا تخافتْ بقراءتها، بحيث لا تُسمع من خلفك من المؤمنين ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ أي أمراً وسطاً، فإن خير الأمور أوساطها. عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَجهَر بِصَلاتِكَ﴾ قال: كان ﷺ بمكة إذا صلى بأصحابه، رَفَع صوتَه بالقرآن، فإذا سمعه المشركون سبُّوا القرآن ومَنْ أنزله، ومن جاء به، فقال الله تبارك وتعالى لنبيه ﷺ ﴿وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ﴾[2] الآية وقيل نزلت الآية

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي رقم ١٦٣٩ في فضائل الجهاد.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٨/ ٤٠٥ ومسلم برقم ٤٤٦ في الصلاة.

في الدعاء، وهو قول عائشة، والنخعي، ومجاهد، ومكحول، روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها في قوله تعالى: ﴿ولا تجهر بصلاتك﴾ الآية قالت: «نزل ذلك في الدعاء»[1] وعن أبي قتادة أن النبي ﷺ قال لأبي بكر: مررتُ بكَ وأنت تقرأ القرآن، وأنت تخفض من صوتك، فقال: «إني أسمعت من ناجيتُ، فقال ارفع قليلاً، وقال لعمر: مررتُ بك وأنت تقرأ وأنت ترفع من صوتك، فقال: إني أوقظ الوَسْنَان، وأطرد الشيطان، فقال: اخفض قليلاً»[2].

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾.

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ كما يزعم النصارى واليهود حيث زعموا المسيح ابن الله، وعزير ابن الله، وقال المشركون: الملائكة بناتُ الله، تعالى اللهُ عن ذلك علوّاً كبيراً ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ كما يقوله الكفار القائلون بتعدد الآلهة ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ﴾ أي مانع وناصر ﴿مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ لاعتزازه به، أو لم يوال أحداً من أجل مذلة ليدفعها به، والمعنى: ليس جلَّ وعلا بذليل حتى يحتاج إلى الولي والنصير، وفي التعرض في أثناء الحمد لهذه الصفات الجليلة، إيذان بأن المستحق للحمد، مَنْ هذه نعوتُه دون غيره، إذ بذلك يتم الكمالُ، والقدرةُ التامة ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ أي عظِّمْه وصفْه بأنه أكبر من أن يكون له ولد، وشريك، عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «أفضل الدعاء «الحمدُ لله» وأفضل الذكر «لا إله إلا الله»»[3].

---

(١) أخرجه البخاري من حديث عائشة موقوفاً، وانظر فتح الباري ٨/ ٤٠٥.

(٢) أخرجه الترمذي في المواقيت، وأحمد في المسند ١/ ١٠٩.

(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات رقم ٣٣٨٠ وابن ماجه رقم ٣٨٠٠ في الأدب.

والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه وبالله العصمة والتوفيق، حسبنا الله ونعم الوكيل، نعم المولى ونعم النصير،

والصلاة والسلام على خير خلقه محمد ﷺ، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الإسراء»

* * *